
روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
حلقة الرعب
١٠
عدد ممتاز

مقـدمة ..

منتصف الليـل ...

النوم قد جافانى .. والسعال يعابث شعيباتى الهوائية .. وفناجين القهوة العديدة تحتشد فى خلايا مخى داعية إياى كى أكتب قصة أخرى ..

هل تعرفون من أنا ... ؟

تعرفون ...

لكنى أرى بينكم وجوهًا جديدة بريئة لم يسعدنى الحظ بالجلوس معها من قبل ، لهذا أقول ـ لهذه الوجوه فحسب ـ أن إسمى هو (رفعت إسماعيل) .. شيخ فان يملك مئات القصص المفزعة التى كان طرفًا فيها بشكل أو بآخر ...

ماذا أحكى لكم اليوم ... ؟ ...

فى هذه المرة لن تكون حكايتى كالتى تعودتموها من قبل ، سأحكى لكم قصصًا عدة قصها علىّ بعض الأصدقاء فى أمسية شتاء رهيبة .. وكان محورها جميعًا هو الخوف .. الخوف الموروث غير المبرر الذى نحمله بين ضلوعنا ولا نجد له منطقًا ولا نهاية ...

إن الطقس بارد حقًا ...

إقتربوا يا رفاق من مجلسنا وخذوا أماكنكم .. هل لكم فى قدح من (الكاكاو) أو حفنة من (أبو فروة) ؟.. هل تحبون أن تقتربوا أكثر من المدفأة ؟..

إفعلوا ما يحلو لكم ..

لأن الليلة ليلة غير عادية .. واللقـاء غير مسبوق ...

إنها حلقـة الرعب ...

حلقـة الرعـب ..

ـ أنا أمقت الشمس والزهور !

قلتها مشعلًا سيجارتى مديرًا ظهرى لهم ، لمدة ثوان لم يصدقوا أننى قلت ذلك ، ثم أنهم انفجروا ضاحكين فى هستيريا ..

سمعت صوت (عادل) الضاحك :

ـ لن تتغير أبدًا يا (رفعت) .. دائمًا نفس التعليقات والآراء الشاذة التى تتعمدها لمجرد الغرابة ..

وصوت (سهام) الساخر :

ـ معنى هذا أنك تحب الظلام والوحل ؟!

وصوت (هويدا) الحانى :

ـ أنا أفهم ما يعنيه .. إنه يعشق الغموض والخيال ، لكن الشمس والزهور أشياء واضحة مألوفة إلى حد لا يُطاق ..

وصوت د. (سامى) يقول برزانة :

ـ إن الشخصيات المكتئبة المتجهمة هى نوع من فطر (عيش الغراب) الذى لا ينمو إلا حيث الظلام والرطوبة .. ، السوداوية لا تنتعش إلا فى المطر والرعود ..

ثم شعرت بعيونهم تتلاقى على ظهرى .. ويسألون :

ـ وما رأيك أنت يا د. (رفعت) ؟..

★ ★ ★

ما رأيى أنا ؟..

لا أدرى حقًا ...

من أكون أنا حتى أعرف كنه نفسى ..؟

كنت أتأمل الليل البهيم فى الخارج ملصقًا أنفى بزجاج النافذة البارد ، وقطرات المطر تنهال على الدروب فتتناثر قطرات الوحل هنا وهناك ، على حين تتكسر المرئيات عبر خيوط الماء المنزلقة فوق زجاج النافذة ببطء .. ببطء ..

ثمة كشاف سيارة هنا أو هناك يمزق الظلام ويدوى صوت الأمواج الممزقة تحت عجلاتها ، على حين تتكاثف قطرات بخار الماء الضبابية أمام عينى ، والقشعريرة تغزو عمودى الفقرى إذ أتصور البرد بالخارج وأقارنه بدفء الداخل ..

صوت (أم كلثوم) ينبعث من المذياع باعثًا فى قلوبنا مشاعر حزينة تكاد عيوننا تندى لها (كان هذا الخميس يوافق حفل (أم كلثوم) الشهرى ، وكان احتشاد الأسرة حول المذياع طقسًا مقدسًا فى تلك الأيام) ..

وللحظة تتوهج الغرفة باللون الفضى الباهر .. ثم .. برووووم !..

يدوى هزيم الرعد معلنًا تصادم النجوم ..

ـ يا لها من أمسية !

قالها (عادل) وهو يقف خلفى يرنو إلى ما أرنو إليه .. ثم استطرد ..

ـ أعتقد أنه من الحكمة أن نبقى جميعًا هنا حتى تهدأ (النوّة) ..

ـ هى آخر (نوّات) العام ..

قال (عادل) فى خبث وهو يربت على مؤخرة رأسى :

ـ يا لك من نحس !.. إنها أسوأ لحظة ممكنة يغادر فيها رجل (القاهرة) ليزور خطيبته فى (الإسكندرية) ..

ـ ألا فى سبيل الحب ما أنا فاعل .. !

وهنا سمعنا صوت مدام (ثريا) زوجة د. (سامى) تدعونا فى حماس إلى العشاء ، من ثم فارقنا موقفنا عند النافذة الموصدة واتجهنا إلى مقعدين وثيرين فى قاعة الجلوس المريحة ..

جميلة هى فيلا الدكتور (سامى) وأثاثها ينمّ عن ذوق سليم .. وكانت ربة الدار حريصة على استخدام المساحات الشاسعة الخالية من الأثاث مع استعمال لونين فحسب هما الأزرق والأبيض ، والإفراط فى توزيع نباتات الظل .. كل هذا كان مريحًا للعين إلى حد لا يوصف ..

وكانت هناك مدفأة (كيروسين) تتوهج باعثة الدفء المادى والمعنوى فى عروقنا ، أما الذى زاد الدفء إلى حد لا يمكن التعبير عنه فهو جبل الساندوتشات الذى جلبته لنا ومعه عربة الشاى بما عليها من أقداح أنيقة ..

هل تفهم هذه اللحظات ؟.. حين يتجمل الوجود وتشعر فى روحك برضا قاتل عن الآخرين وعن نفسك ..؟.. حين تتمنى أن تظل فى هذا الزمان والمكان حتى تموت ؟ ..

لا وقت للتفلسف لأن هؤلاء الزملاء سينسفون الساندوتشات نسفًا ـ كالمحرومين ـ والجبل يتناقص .. تعال نر ما تحويه .. لحمًا باردًا .. جبنًا .. لا بأس .. لا بأس ..

شرعت أزدرد فى جشع حين دنا (عادل) من أذنى وهمس :

ـ إرحم قليلا ..!.. تأكد أولا من أن (هويدا) تأكل ...!

ـ لكنها تملك مثلى فمًا ويدين ...

ـ إنها اللياقة أيها الهمجى ..!.. اللياقة !

حملت ساندوتشا من البيض (لا أحبه أبدا) واتجهت إلى (هويدا) وألقيته فى طبقها وقلت لها بفم ملىء بالطعام :

ـ . كُلى هذا ..! . .

ثم عدت لمقعدى غارقًا فى نظرات الحنق التى يصوّبها لى (عادل) ..

لماذا يرمقنى بهذا الشكل ؟.. لن أفهمه أبدًا ..

شرعنا نأكل فى صمت اللهم إلا من صوت المضغ المنتظم ..

بعين شبه وقحة أتأمل الجالسين حولى .. تلك المجموعة التى وخدتها الصداقة وقسوة الطبيعة .. ، تعال أعرفك بهم .. هيًا !.. لا تخجلْ !..

أنت تعرفنى جيدًا فلا داعى لأن أصدع رأسك بكلماتى التى حفظتها عن ظهر قلب .. أنا هو أنا دون تفاصيل ..

أما هذه الفتاة ـ نصف الحسناء ـ فهى (هويدا) خطيبتى .. وجوارها (سهام) شقيقتها و (عادل) زوج الأخيرة ، وهى مجموعة متلاحمة لابد أنك تعرفها إذا كنت قد قرأت مغامرتى مع آكل البشر أو لعنة الفرعون ..

أما هذا الملتحى ذو النظارة السميكة فهو (شكرى الأشمونى) ..

وهوَ موظف على المعاش ويمارس أغرب هواية يمكن لإنسان أن يمارسها .. تصوروا أنه ـ هذا المعتوه ـ يهوى كتابة قصص الرعب ؟!!..

ثم أنت تعرف هذا الأصلع ذا النظارة دون شك .. فكر قليلًا ..!.. نعم ..! هو بعينه د. (محمد شاهين) أستاذ (الأنثروبولوجى) الذى وخدتنى معه حكاية جارى آكل البشر ، وهو ـ كما قلت لك ـ إنسان برىء إلى حد لا يُوصف حتى أنك لو وصفت له صراعك مع أسدين وجدتهما فى غرفة نومك أمس لقضى حياته يصف شجاعتك للناس ، وظل يدخل غرفة نومه فى هلع كل ليلة خشية أن يجد أسدين هو الآخر ..!..

أما مضيفنا وامرأته ـ د . (سامى) وحرمه ـ فمن أكثر الناس رقيًا وتحضرًا وثقافة ، ولما لم يكونا قد رزقا بأطفال فإن (السعار الاجتماعى) ـ ولا أجد لفظة أخف وطأة ـ كان يدفعهما إلى تصرفات غير عادية مثل دعوتنا إلى العشاء .. تخيل هذا !!..

كان د. (سامى) أستاذًا للأمراض النفسية لكنه لم يدخل عالم النفس من باب كلية الطب .. بل من باب كلية الآداب ، لهذا كان يؤمن بأساليب التحليل النفسى ويعلق صورة (فرويد) (*) المرعبة فى غرفة مكتبه .. كان أديبًا أكثر منه طبيبًا ..

مشكلته الوحيدة هى أنه لا يفتح فاه إلا ليعلمك شيئًا جديدًا ، وقد يكون هذا محتملًا بعض الوقت .. أغلب الوقت .. لكنه ـ بالقطع ـ غير محتمل طيلة الوقت ..

(*) سيجموند فرويد : أبو التحليل النفسى .

كان د. (محمد شاهين) متواجدا فى (الاسكندرية) وهو – بالصدفة – صديق قديم لمضيفنا .. ثم .. أنت تعرف كيف تتم هذه الأمور .. فلان يعرف فلانا .. وعلان صديق علانه .. من ثم تكون الدعوة جماعية.. وها نحن أولاء مجتمعون فى هذه الأمسية نقضى وقتا ممتعا .. لولا الأحوال الجوية السيئة التى جعلت من المتعذر عودتنا لديارنا ..

والواقع أن حرم د. (سامى) كانت اجتماعية حقيقة لا تصنعا ، تمقت الأكسجين وتعشق ثانى أوكسيد الكربون .. وكانت سعيدة فخورا بكل هؤلاء الأوغاد المزدحمين فى دارها يأكلون طعامها ويحسون شرابها .. . لكن (هويدا) كانت عصبية قلقة لأنها الآنسة الوحيدة الموجودة هنا .. وأمها العجوز وحدها فى الدار مع حفيدها إبن (سهام) و (عادل) .. ، لهذا قربت مضيفتنا جهاز الهاتف منها كى تخبر أمها أنها ستعود متأخرة بعض الشىء ، وتطمئنها على أن (سهام) معها وزوجها و ..... أنا .....

– . لكنى خائفة ... . .

– . من أى شىء ؟.. . .

قالت (هويدا) وهى ترتجف مقفلة – لا شعوريًا – ياقة قميصها :

– من كل شىء .. البرد .. الظلام .. الأمطار ..

ردد (شكرى) عبارتها فى رصانة وهو يلوك بقايا الساندوتش الأخير ، وبدا الشرود على وجهه :

– البرد .. الظلام .. الأمطار ..

ثم رفع عينيه تجاهنا .. واستطرد بنفس الشرود :

– مفردات الرعب الأبدية ...

أشعلت سيجارة .. وقربت مطفأة السجائر منى .. وقلت :

– وماذا فى ذلك ؟.. أى جديد فى كل هذا ؟..

رد (شكرى) وهو يشعل سيجارة بدوره ويسحب المطفأة من أمامى :

– إن لدينا كل ما يلزم لقصة رعب جيدة .. البرد .. الظلام .. الأمطار .. ودراما المكان الواحد حيث يجتمع مجموعة من الأشخاص يتوقعون الشر ...

– نسيت القمر ...

– وعواء الذئاب .. لابد من وجود عواء ذئاب ..!

قال (عادل) وقد بدأ الحديث يروق له :

– خاصة إذا ما تخيلنا أن هذه الفيلا تطلّ على المقابر ..!

صاحت (سهام) فى هلع وقد توترت أعصابها :

– (عادل) !.. هل جننت ..؟

– أنا أمزح يا ملاكى .. أمزح .. أحاول أن أكون ظريفًا لا أكثر ..!

– وقد فشلت ...!

خفض (عادل) رأسه فى شىء من الحرج على حين واصل (شكرى) الكلام معابثًا لحيته كعادته :

– ألا تجدون متعة ما فى كل هذا ؟..

تبادلنا النظرات لوهلة .. ثم تساءلت (هويدا) فى أدب :

ـ عم تتحدث ؟

تأمل طرف السيجارة المشتعل هنيهة .. وغمغم :

ـ متعة الرعب .. ألا تشعرون بها ..؟

ـ هل تمزح ..؟

قالتها وقد تقلص وجهها فى إعلان صريح عن سماجته ... إلا أن د. (سامى) تدخل بطريقته الرقيقة المنطلقة مؤيدًا كلام ضيفه :

ـ إنه يعنى ما قال يا آنسة (هويدا) .. إن هناك لذة حقيقية فى الرعب يعرفها الجميع ، ولهذا يدفع الناس مالاً كى يدخلوا دور السينما ليرتجفوا فى الظلام مع أفلام (دراكيولا) و (فرانكنشتاين) .. ولهذا يدخلون بيت الأشباح فى مدينة الملاهى ...

سألت (سهام) وهى تضع ساقًا فوق ساق :

ـ وما تفسير ذلك ؟

ـ هناك تفسيرات عدة .. قيل أن الرعب الذى ترينه فى السينما هو رعب (مُروّض) .. وفى أعتى لحظات الفزع تقولين لنفسك أن كل هذا وهم .. كله خيال .. وأنك بعد انتهاء الفيلم ستعودين لدارك سالمة .. ، ولهذا تمارسين فى استمتاع هذا التلذذ الماسوشى ...

حركت شفتيها فى تعثر محاولة نطق الكلمة :

ـ ما ... ماسوشى ؟..

ـ ماسوشى .. أى لذة التعذب .. لذة الشعور بالألم ، وهى موجودة لدينا جميعًا بقدر متفاوت .. لكنها دائمًا هنالك .. والدليل هو نجاح أفلام الرعب ...

أطفأت لفافة تبغى ونظرت نحو (شكرى) متسائلاً :

ـ وهل كتابة قصص الرعب مجزية يا أستاذ (شكرى) ..؟

ـ يا له من سؤال !

ـ لست مأمور ضرائب .. فلا تخشَ شيئًا ..

أطفأ بدوره لفافة تبغه .. وأجاب فى شىء من المراوغة :

ـ إنه سؤال لا تتوقع إجابة له .. فالقول أنها غير مجزية يعنى أننى فاشل أو غير موهوب ، وأنا لن أقول هذا عن نفسى أبدًا ..

ـ إذن هى مجزية ..؟

ـ لا تحاول انتزاع الكلمات من حلقى .. ثم إن (أدب الرعب) فى (مصر) مجرد رضيع يحبو وليس له أية جذور عتيقة فى تراثنا اللهم إلا قصص (النداهة) و (الغولة) و (المزييرة) .. لهذا أتحرك وحدى فى الظلام ..

ـ وما جدوى أن يحاول الكاتب إفزاع قرائه ؟

ـ لأنهم يحبون ذلك !

قالتها فى عصبية وقد بدأ يشعر أننى أحاول استفزازه عمدًا (ولم يكن سخيفًا فى الواقع) .. ، وهنا تدخل د. (محمد شاهين) بصوته الواهن :

ـ ثم أن هناك كتابًا عالميين مثل (إدجار آلان بو) و (برام ستوكر) و (مارى شيللى) كتبوا قصصًا مفزعة ولم يتهمهم أحد بأنهم ليسوا أدباء ..

قال د. (سامى) فى سرور :

ـ هذا يؤكد ما قلناه آنفًا .. إن الناس تحب أن تخاف .. ، ولكن

ليكن ذلك خوفًا مَقننا محدودًا .. ، والآن تأملوا جلستنا هذه .. نحن جالسون فى الدفء والأمان فى حين تعربد العواصف والأنواء فى الخارج .. ، أليس هذا مثيرًا ..؟ أليس هذا فاتنا ؟.. كل هذا الرعب بالخارج لكننا هنا فى مأمن ولن يضيرنا شىء .. ، عندئذ نشعر باللذة ونتجه نحو زجاج النافذة ـ كما فعل د . (رفعت) منذ دقائق ـ كى نرمق الدروب المظلمة ونتخيل ما إذا كان سيحدث لو لم نكن هنا ؟!..

قال (عادل) وهو يصبّ مزيدًا من الشاى لنفسه :

ـ تأكيدًا على كلامك .. كنا نطلب من جدتنا أن تحكى لنا قصص الجان ثم نتوسل إليها أن تتوقف .. وبعد ثوان نعود لنرجوها دامعين أن تواصل السرد !

وابتسم إبتسامة غامضة وقال :

ـ وكما قلت أنت : (الرعب المروض) .. أحب أن (أتخيل) ما سيحدث لو صادفنى مصاص دماء على سلم دارى .. لكنى لا أحب أبدًا أن يحدث ذلك !!

ـ هذا هو بيت القصيد ..

ساد الصمت لبرهة .. ثم قالت (هويدا) فى مرح :

ـ من الغريب أن يكون هنا حشد ممن لهم باع لا بأس به فى عالم الرعب ..

وأشارت نحوى إشارة ذات معنى :

ـ (رفعت اسماعيل) خطيبى العزيز الذى تطارده المصائب حيثما ذهب ..

وأشارت نحو (شكرى) .. وابتسمت مستطردة :

ـ وكاتب قصص رعب .. ربما الوحيد فى بلادنا .. و ...

والتفتت فى إتجاه د. (سامى) .. وهمست :

ـ .. وأستاذ فى علم النفس يفهم بواعث الرعب وجذوره ..

أضفت أنا مشيرًا إلى د. (محمد شاهين) :

ـ .. وأستاذ فى (الأنثروبولوجى) يعرف أبعاد الخوف فى الحضارة الإنسانية ..

قال (عادل) ناقرًا على صدره :

ـ وأنا ؟.. لست بائع فجل أبدًا وإن لدى ـ كرجل أمن ـ ما يقال فى هذا الصدد ..

قالت (سهام) وهى تربت على ركبته :

ـ حقًا قلت .. أما أنا فإن لى باعًا لا بأس به فى الخوف من الفئران وبالتالى فإننى لن أظل صامتة !..

نهضت (هويدا) فى مرح كطفلة تلهو .. وصاحت ضامة كفيها :

ـ فليقل كل منا ما يثير فزعه أكثر من غيره !!

يالها من فكرة !.. إن هذه الفتاة مخبولة تمامًا ..!.. هذا الظلام وذاك الطقس اللعين ثم تقترح هذه اللعبة ؟.. ، لماذا تخليت عنك يا (ماجى) ؟.. ما كنت مقترحة شيئًا كهذا قط حتى لو طلبت أنا ..

قلت فى برود حقيقى :

ـ يا صغيرتى .. لقد سئمنا جميعًا ألعاب حفلات الكلية هذه !

شد (عادل) معصمى فى قسوة .. وغضب :

- (رفعت) !.. إنك تفسد كل شىء وتحيله إلى جهد ثقيل ممل .. ألم أقل لك أن تتحمس ولو مرة واحدة فى حياتى ؟!

- بلى .. سأتحمس .

وجلست فى تعاسة لآخذ دورى فى هذه المهزلة ..

وبدأت الأصوات تتوالى :

- أخاف الفقر ..

- أخاف المرض ..

- أخاف الفئران ..

- أخاف اللصوص ..

- أخاف ...

- لحظة يا سادة ..

قالها (شكرى) رافعًا كفه وقد بدا عليه الملال .. ثم استطرد :

- كلنا نخاف هذه الأشياء .. وكلنا نعرف أن الآخرين يخافونها ، المعضلة الحقيقية هى الفزع غير المبرر .. الفزع الذى لا ندرى منطقًا له لكنه يكبلنا بقيوده ..

(الفوبيا) .. هذه هى الكلمة المناسبة ..

قالها د. (سامى) وقد وجد من واجبه أن يعلمنا مصطلحًا جديدًا :

- نعم .. نعم .. (الفوبيا) .. هناك مخاوف عديدة فى حياة كل منا لا يدرى لها مصدرًا ولا تفسيرًا لكنها قائمة ..

- يقال أن مصدرها خبرات دفينة فى العقل الباطن منذ الطفولة لا نذكرها لكنها تصحو عند اللزوم .. مثلًا .. لماذا نخاف الظلام ؟..

هل هى تلك الخبرة القاسية الأولى حين وجدنا أنفسنا وحيدين عاجزين فى الظلام بينما أمنا غافية ؟!..

بتؤدة قال د. (محمد شاهين) وهو يفرك يديه :

- إذا سمحت لى .. هناك أيضًا نظرية (الوجدان الجمعى) .. فحين كان ظلام الليل ينسدل على الإنسان البدائى كان هذا يعنى هجوم الدببة والوحوش ، وبمرور الزمن لم يعد الخطر قائمًا لكن الخوف ظل حيًا فى فصوص عقلنا .. ، ونفس الشىء ينطبق على خوف المرتفعات (أكروفوبيا) والأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا) ..

قلت وأنا أشعل سيجارة أخرى أمام نظرات (هويدا) المتوعدة :

- قرأت أن كابوس السقوط الشهير حين يحلم الواحد منا أنه يسقط فى هاوية بلا قرار ثم يصحو فجأة غارقًا فى العرق .. هذا الكابوس هو إحياء لذكرى نوم الإنسان البدائى فوق غصون الأشجار حين تتخلى قبضته عن الغصن أثناء نومه .. فيهوى ..

ابتسم د. (سامى) فى غموض وقال :

- تلاحظ أن كابوس (السقوط) ينتهى دائمًا قبل أن تلمس الأرض ..

- صحيح .. ولكن ما معنى هذا ؟

- إنه إنذار .. مجرد إنذار وليس فيلمًا سينمائيًا له نهاية .. البريق الفضى .. ثم .. برووووم !!..

وثبت (هويدا) فى صدر شقيقتها ترتجف .. فى حين وقف (عادل) متصلبًا وبدت مخايل التوتر على وجوه الرجال .. ، لماذا يصرّ هؤلاء الحمقى على كهربة الجو بهذه الأحاديث المسمومة ؟.. لماذا لا يتحدثون عن شىء مبهج كالفيضانات والزلازل والمجاعات ؟!..

- إن الحديث عن الخوف .. مخيف !

قالتها زوجة د. (سامى) وهى تجمع الأقداح ، فنهضت المرأتان تساعداتها على حين د. (سامى) يغمغم وهو يعود لمقعده :

- لكنه يعيننا على فهم أنفسنا أكثر ..

قال (شكرى) مصرًا على لعبته السخيفة :

- والآن .. ليقل كل منكم ما يخشاه أكثر من غيره ..

قلت وأنا أطفئ السيجارة :

- لوسمحتم لى بالبدء .. أعتقد أن (ألفريد هتشكوك) قد تحدث عن ثلاثة كوابيس رئيسة فى تحفه الثلاث : (نفوس معقدة) وناقش فيها الخوف من الأماكن الغريبة .. (جنون) وناقش فيها الخوف من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم .. (دوار) وناقش فيها خوف المرتفعات ..

هز رأسه فى فتور بمعنى أن ما أقوله سخيف وغير مفيد .. ثم نظر نحو (سهام) و (هويدا) وزوجة الدكتور .. وسألهن :

- السيدات أولا .. ماذا يفزع مدام (سهام) غير الفئران ؟

نظرت للسقف وهى تمسك الصينية .. وتساءلت :

- فزعًا غير مبرر ؟!

- بالتأكيد ..

قالت فى شرود بعد ثوان من التفكير :

- إننى أخاف المرآة .. أخاف من صورتى فيها وما قد تفعله حين أدير ظهرى لها ...!



قرأت أن كابوس السقوط الشهير حين نحلم الواحد منا أنه يسقط فى هاوية بلا قرار ثم يصحو فجأة غارقًا فى العرق ..

تبادلنا النظرات .. ثم قال (شكرى) فى رضا :

ـ لا بأس .. إن المرايا تلعب دورًا لا بأس به فى التراث الإنسانى .. والخوف والتطير منها معروفان من قدم ...

قالت (هويدا) وهى ترتجف كعادتها :

ـ أما أنا فأخاف الصور المحملقة التى تتابعنى عيناها حينما ذهبت ..

ـ هى خدعة بصرية قديمة .. وكل صورة يمكنها أن تتابعك إذا تعمد الرسام وضع المقلة فى مركز العين ، وكل رسام إعلانات يعرف كيف يعطى هذا التأثير .. وأنتِ يا مدام (ثريا) ..؟

ابتسمت زوجة د. (سامى) وهزّت كتفها .. وفكرت قليلًا :

ـ دعنى أفكر .. ما الذى يثير رعبى ؟.. نعم .. أنا أخاف كثيرًا مما يحدث على شاشة التلفزيون بعد انتهاء الإرسال حين ننام جميعًا ..!

ـ خوف غير مألوف .. لكنه يعكس الرعب الكامن فينا جميعًا من المجهول ..

ثم إنه نظر إلى د. (محمد شاهين) متسائلًا .. فهزّ هذا الأخير رأسه في تواضع بمعنى أنه لم يستعد للإجابة بعد ... ثم غمغم :

ـ لا أدرى حقًا .. لكننى أخاف خوف الحيوانات !

ـ تعنى تخاف الحيوانات ؟

ـ كلّا .. أخاف خوفها .. حين يتوتر قطى الأليف أو يبدأ كلب فى النباح دون سبب يكاد قلبى يقف هلعًا ..

قلت وقد أثارت هذه النقطة ذكرياتى :

ـ إن ثقة الإنسان فى غريزة الحيوان تجعله متأكدًا أن الحيوان يشعر بما لا نراه نحن ، وهذا الخوف أثبت نجاحه كمقياس فى الزلازل والفيضانات وحرائق الغابات ، ولن أنسى ما أنسى توتر الجمل حين خرج حارس الكهف الرهيب يبحث عنى .. ولا فرار الكلاب من طريق (هويدا) ليلة أن طاردها حارس المومياء ..

وأنت يا د. (سامى) ..؟

قال د. (سامى) فى كياسة :

ـ الكابوس الخاص بى هو : أننا نسافر كثيرًا تاركين (الفلا) خالية .. لو أن كاميرا تصوير التقطت ما يحدث فيها فى تلك الآونة .. فماذا سنرى على الفيلم عند عودتنا ؟!!

وابتلع ريقه فى رعب .. وأضاف :

ـ وأخاف الأضواء الخافتة وأفضل عليها الظلام الدامس ..!

قلت أنا وقد تذكرت كوخ (ميدوسا) :

ـ أوافقك تمامًا ..

ثم سألت (شكرى) عما يثير هلعه .. فقال على الفور :

ـ الكابوس الشهير .. أن تستعين بشخص على خطر يتهددك فيتضح لك أنه جزء من الخطر .. ، كلنا نعرف قصصًا كهذه .. الحمال الذى يسير فى غابة يعيش بها رجال لا وجوه لهم .. يجد رجلًا يدير له ظهره فيهرع مستنجدًا به كى يحميه فى أثناء اجتياز الغابة ، عندئذ يلتفت له الرجل فى بطء فيكتشف الحمال أن الرجل بلا وجه ..!..

صاحت النسوة الثلاث أن يا للرعب .. وطلبن من (شكرى) أن يكف عن هذه القصص الشنيعة .. فضحك فى تلذذ مرددًا :

- إنها (تيمة) قديمة جدًا فى الأساطير الشعبية وقصص الرعب :

قلت وقد بدأ الموضوع يروق لى :

- ثمة (تيمة) أخرى تثير هلعى دائمًا .. فكرة (لم أكن أعلم وقتها كذا ....) وهى تتكرر فى كل شىء .. موثق العقود (هاركر) يبيت ليلته فى قصر (دراكيولا) غير عالم بما يعنيه الاسم .. لكن القارئ يعلم ! . كلنا نعرف أن جدة (ذات الرداء الأحمر) هى ذئب متنكر لكنها لا تعرف !.. . هى (تيمة) أدبية لكنها تثير رعبى دائمًا ...

تنهدت (سهام) فى إنهاك .. ودمدمت :

- تبًا لها من أمسية !!.. من الذى بدأ كل هذا ؟

- (هويدا) أختك .. حين تحدثت عن البرد والظلام والأمطار ..

- وأنت سعيد بكل هذا ؟

- ولم لا ..؟!

- لأن ...

وتوتر وجهها واتسعت عيناها ونظرت لخارج الحجرة .. ثم همست :

- صه !.. أكاد أقسم أن هناك من يتحرك فى الردهة ..!.. بل أنا واثقة من ذلك ..

قف شعر رءوسنا جميعًا وتصلبت أطرافنا على المقاعد .. لحظات ثم دوت ضحكة (سهام) القاسية ..

- كنت أداعبكم أيها السادة !.. أداعبكم !.. من الواضح تمامًا أنكم ستستمتعون بهذه الأحاديث .. لأنكم شجعان .. شجعان حقًا ..!

قال (عادل) فى حنق :

- (سهام) .. لقد توترت أعصابنا بما يكفى فلا تزيدى الأمر سوءًا ..

نهض (شكرى) فى عصبية .. وهتف :

- لقد أوجدنا الرعب .. لم يكن له وجود لكننا خلقناه وصنعنا له كيانًا ماديًا ملموسًا .. . لقد صار هو الضيف التاسع فى هذا البيت .. بل إنه صار أكثر الحاضرين تأثيرًا وفعالية .. . ألا تدركون روعة هذا ..؟

تعالت سبعة أصوات حانقة أن نعم ..

هز رأسه فى ضيق .. ونظر لساعته .. كانت تقترب من منتصف الليل والعاصفة مستمرة .. . رفع رأسه متسائلًا :

- هل ننصرف الآن محاولين العودة لبيوتنا بأية طريقة ؟

قال د. (سامى) فى أريحية لا أثر للافتعال فيها :

- مستحيل .. ستبقون هنا ، وستنام السيدتان مع زوجتى .. أما الرجال فينامون هنا معى .. لا مشكلة هنالك ..

- لا أحد يرغب فى النوم ..

ثم لوح (شكرى) بيده فى الهواء وهتف :

- نواصل لعبتنا الرهيبة .. فليحك كل منا قصة مرت به .. قصة تتعلق بالفزع الغامض الذى تحدثنا عنه الآن ..

ـ (ديكاميرون) !

قلتها في سخرية ، وبالطبع لم يفهم أحد عما أتحدث سواه و د. (سامى) من ثم قال الأول مؤمنا على كلامى :

ـ هو كذلك .. مثل الـ (ديكاميرون) (★) .. لقد تخيل الإيطالى (بوكاتشيو) أن الطاعون إجتاح بلدًا ، وأن رجالًا ونساء اختبئوا عشرة أيام حتى يرحل الوباء .. وشرع كل منهم يحكى قصة لتزجية ساعات الفراغ ، على أن قصصهم كانت تدور ـ غالبًا ـ حول المجون والخيانات الزوجية .. أما (الديكاميرون) المصرى فسيدور حول الخوف ..

ـ يا لها من فكرة !..

ـ فلنبدأ .. وفى نهاية الأمسية سنختار أفضل قصة ونمنحها مكافأة ..

وضاقت عيناه وعبث بلحيته وهو يعود لمقعده مستطردا :

ـ .. مكافأة خاصة جدًا ..

ـ .. وما هى ؟..

نظر لى فى شرود ...

ثم ابتسم ...

★ ★ ★

(★) يؤمن كثير من نقاد الأدب أن (الديكاميرون) هى الميلاد الحقيقى لفن القصة القصيرة .

القصة الأولى

انعكاس ..!

تحكيها : (سهـام)

- ١ -

قالت (سهام) وهي تخفض صوت المذياع :

ـ إن الغرام القديم بين الأنثى والمرآة معروف منذ الأزل .. ، ولئن كانت النساء يعرفن جيدًا كيف يرين الشيء دون أن ينظرن إليه ، فإن الشيء الوحيد الذي تنظر له المرأة بإمعان لهو المرآة ..

* * *

أنتم تعرفون ـ وأقولها بكل شجاعة ـ إنني و (عادل) زوجان محدودا الدخل ، لكن المرأة الذكية لا تكف لحظة عن البحث عن متنفس لتجميل شقتها .. ، وقد وفقت الى العثور على قطع أثاث في منتهى الأناقة بقروش معدودة .. عندئذ كانت بعض لمسات التجديد كفيلة بتحويلها إلى تحفة حقيقية ..

وفي ذات يوم كنت أتسوق حين وجدت رجلًا يبيع بعض الأشياء التي تحمل طراز العظمة الغابرة .. ، مقاعد صالون مذهبة تكومت كيفما اتفق فوق عربة يد .. ومرآة مزخرفة الإطار ملقاه بإهمال ما بين المقاعد ، لكن المدهش بالنسبة لي هو أن زجاجها كان سليمًا وصقيلًا وبحال ممتازة ..

ولما سألت الرجل عن ثمنها وأنا أتحسس جنيهاتي الخمس التي أطبقت عليها كفًا ملوثة بالعرق ، كان رده أنه يريد خمسة جنيهات ! ..

كان الإغراء قويًا .. وأنا لست حمقاء .. هذه المرآة تفوق هذا السعر بمراحل ، ولم تستغرق الصفقة طويلًا .. أربع جنيهات ونصف ثمن المرآة وربع جنيه كي يحملها صبي يعمل معه إلى داري .

وعدت للدار حاملة كنزي الصغير متسائلة في قلق عن رد فعل (عادل) إذ يرى ما جلبته .. ، إن الرجال لا يفهمون هذه الأشياء أبدًا .. وسيكون من الصعب أن يفهم كيف اشتريت مرآة بالمبلغ الذي كنا سنأكل به طيلة الشهر (*) ..

كنا لم ننجب بعد .. ، لهذا لم أخش شيئًا حين وضعت المرآة في صالة البيت وشرعت أتأملها ..

كانت فاخرة بلا شك ، وإطارها المذهب المليء بالزخارف يعكس عظمة غابرة لو تناسينا أكوام الغبار المحشورة بين هذه الزخارف .. وتساقط القشرة الذهبية في عدة مواضع ، أما المرآة ذاتها فكانت سليمة تمامًا بلا خدوش ولا عيوب في الطلاء ..

لابد أن هذه المرآة كانت تزين بهوًا في قصر أمير أو أحد بكوات ما قبل الثورة ، لكنني لم أفهم قط كيف وصلت ليد هذا البائع .. ولماذا باعها بهذا الثمن البخس .. ؟

أحضرت خرقة وزجاجة كحول وبعض الماء والصابون وصنعت مزيجًا لا بأس به لتنظيف الإطار المتسخ .. ، وبدأت أعبث هنا وهناك بأطراف أناملي .. خطوة بخطوة بدأ الماء يستحيل للون الأسود لكن حال المرآة لم يتبدل كثيرًا ..

وهنا اصطدمت أناملي بشيء ما ..

كان ثمة شيء محشور بدقة في أحد التجاويف على جدار المرآة الخارجي ، وحاولت إخراجه لكني فشلت .. ، تناولت مفكًا وشرعت أعالج هذا الشيء حتى تمكنت من انتزاعه وبدأت أتفحصه ..

(*) نرجو ألا ينسى القارئ أن أحداث القصة في الستينات .

كان ذلك الشيء وريقة صغيرة برمها أحدهم بشدة حول نفسها حتى غدت أقرب إلى المسمار ، وهكذا استطاع أن يدسها فى الثقب ..

ببطء وحذر فتحت الوريقة لكنها كانت مهترئة تمامًا وتمزقت بين أناملى قبل أن أتمكن من فتح جزء صغير منها .. ، من ثم كورتها ورميت بها أرضًا وعدت أواصل عملى ..

كنت أرى انعكاس وجهى فى المرآة بزاوية عينى ، وأعتقد أنه كان واقفًا فى مجال ما يسميه الأطباء بـ (البقعة العمياء) التى ترى فيها الشيء لكنك لا تميزه .. فقط أشعر ببقعة وردية هى وجهى حولها هالة سوداء هى شعرى ..

ولكن ...

لا أدرى .. للحظة خيل لى أن إنعكاس وجهى فى المرآة يلتفت للناحية الأخرى !!.. أنا لست مخبولة .. هذا هو ما شعرت به .. رفعت وجهى نحو المرآة سريعًا فلم أر سوى وجهى المرتعب يرمقنى فى حيرة ..

أخرجت لسانى فأخرج وجهى لسانه ، قطبت فقطب وجهى ، لوحت بيدى اليمنى فلوح الانعكاس بيده اليسرى ..

لا مشكلة هنالك ..

هى مجرد مرآة بريئة أخرى ..

لكن ما سر هذا الإحساس العصبى الذى ينتابنى ؟

* * *

حين جاء (عادل) بعد انتهاء عمله كان واضحًا جدًا ومباشرًا فى رأيه الذى أبداه فيما يتعلق بهذه المرآة .. ، وبالطبع قال إننى مدللة وعابثة ولا أتحمل المسئولية وأنه ـ بالتأكيد ـ كان يتمنى لو كان متزوجًا من واحدة أخرى لا تبدد ميزانية البيت فى شراء المرايا ..

ـ لكنها مرآة جميلة ..

ـ وكذلك حمامات السباحة .. كلها جميلة .. لكننا لا نملك حمام سباحة فى الصالون !

وبعصبية فك ربطة عنقه ودلف إلى الحمام تاركًا إياى واقفة فى الصالة لا أدرى ما أفعل ولا ما أقول .. ، وهنا استدرت ـ عفوًا ـ تجاه المرآة فلمحت شيئًا عجيبًا ..

كأن صورتى فى المرآة كانت ترمق ظهرى بحدة طيلة الوقت ، وحين التفت لها نجحت ـ بالكاد ـ فى استعادة مظهرها البريء ..! ، وعادت كما كانت مجرد انعكاس لى ..

اقتربت منها وشرعت أتأملها ..

بالطبع كان معنى هذا أنها تتأملنى هى الأخرى ..

كانت ـ ككل صور المرايا ـ تشبهنى تمامًا لكنى (ولا أدرى إن كنت واهمة أم لا) تبينت نوعًا من القسوة فى شفتيها الرفيعتين .. بل إن ابتسامة ساخرة تلاعبت على ثغرها !.. ، أسمعكم تضحكون .. تقولون إننى رأيت إنعكاسًا لهواجسى وحالتى النفسية وأن من كان يضحك بقسوة هو أنا وليس الانعكاس .. ، لكنى أقسم لكم إننى لم أكن أهذى .. أنا واثقة أن هذه الصورة كانت تختلف عنى اختلافًا طفيفًا ..

في هذه اللحظة دوى صوت باب الحمام ينفتح .. وبرز (عادل) ممسكا بمنشفة واتجه نحو غرفة النوم .. وسألني دون اكتراث :

ـ ماذا حدث يا (هانم) ؟.. هل جننت ؟..

كلا .. لن أصارحه بمخاوفي .. أولا ؛ لأن الارتباط بين الجنون وكثرة النظر في المرايا قوي في أذهاننا . ثانيًا : لأنه سيعتبر أية ملاحظة أقولها على المرآة اعترافا مني بأنني خُدعت وأضعت ماله هباء .. . وثالثا : لأن الأمر كله أسخف من أن يُحكى ..

وهكذا مضى اليوم ..

لكنني لم أنس في كل لحظة أمر فيها أمام المرآة أن أفاجئها بنظرة صاعقة علني أفاجئ (الأخرى) وهي غير مستعدة لتقليدي ..

لكن ظني خاب في كل مرة ..

أخيرًا انتصف الليل ..

نام (عادل) كلوح الخشب في حين كان النوم يجافيني ..

كان الطقس حارًا ورطبًا .. وقطرات العرق اللزج تحتشد على جبيني وفوق شفتي العليا . وكان الظمأ يحرقني ..

نهضت لاهثة إلى الصالة لأرشف جرعة ماء من الثلاجة الصغيرة ..

وفي الضوء الخافت المنبعث من جوف الثلاجة اختلست نظرة إلى المرآة التي كنت قد نسيت كل شيء عنها ..

إن هذا غريب ..

هذا المشهد لا يمت بصلة لصالة داري ..

إقتربت في حذر من المرآة .. وكما توقعت لم أر أي انعكاس لي فيها .. لقد رحلت (الأخرى) ..

أما ما رأيت فكان صورة كلاسيكية غريبة وضبابية .. كأنها امرأة .. نعم .. هي كذلك .. امرأة جميلة جدًا تتزين وهي تنظر لي من الجانب الآخر للمرآة .. . وكانت ترتدي ثيابًا غريبة واسعة الأكمام مليئة بالدانتيلا .. وكانت الخلفية مزدانة ـ هي الأخرى ـ بستائر يبدو أنها ثمينة ..

لم تكن الصورة واضحة لأن إضاءتها كانت تعتمد على ضوء الثلاجة الخافت ، ولابد أنني لبثت بعض الوقت ثابتة كالطود شاخصة البصر إلى هذه الصورة التي لا أدري عنها أي شيء ..

ثم .. بدأت أرى انعكاس صورتي من جديد ..

ترى ما معنى هذا .. وما هو أصلا ؟..

عدت إلى الفراش مشوشة الذهن حتى أنني نسيت أن أشرب .. . وفي الظلام حاولت استرجاع المشهد مرارًا ..

حتى غلبني النعاس ..

* * *

صارت الأيام التالية جحيمًا ..

فلم تكن عيناي تبرحان المرآة قط .. وطيلة الوقت يعاودني ذلك الشعور المزعج أن هذه المرأة البادية ليست انعكاسًا لي ، بل هي مخلوقة أخرى تعيش هناك وتمثل أنها انعكاسي .

كانت نظرتها الثابتة الساخرة تثير هلعي ..

لكنني لم أجرؤ قط على أن أصارح (عادل) بهواجسي لأن الرجال يعتبرون النساء هستيريات حتى يثبت العكس ..

بل إنني جرؤت ذات مرة أن ألمح له أن :

انى لبثت بعض الوقت ثابتة كالطود شاخصة البصر إلى هذه الصورة التي لا أدرى عنها أى شىء ..

ـ تلك الصورة التى فى المرآة تفزعنى ..

ابتسم فى سخرية بركن فمه .. وقال :

إن هذا ليس جديدًا ...!

ترى ماذا كان يعنى بهذا التعليق ؟!..

بعد ستة أيام تكرر ما حدث فى تلك الليلة ، وكان ذلك فى الصباح بعد أن انصرف (عادل) .. مررت أمام المرآة شاردة الذهن فشعرت ذلك الشعور الغريب بأن هناك من يراقبنى ، نظرت للمرآة نظرة صاعقة فوجدت شيئًا يختلف ..

فى المرآة كان هناك رجل .. رجل يرتدى بذلة وردية ويضع على رأسه طربوشًا ويشذب شاربه الرفيع الجميل بمشط صغير .. كان ينظر لى فى ثبات .. ثم بدأ يعدل وضع الطربوش منتقيًا الوضع الأمثل .. ، ثم أخرج سيجارة رفيعة من علبة تبغ معدنية أشعلها وشرع يبتسم بخبث راضيًا عن نفسه ..!

بدأت الصورة تذوب .. بينما هلعى يتشكّل ويصحو ..

وحين عاد انعكاسى القديم إلى السطح الزجاجى مددت يدًا متشككة باردة كالثلج إلى المرآة .. وفى توجس أدرتها حول محورها الطولى .. ،

إن هذه المرآة مسحورة .. أقسم على ذلك .. كأنها نافذة تطل على كون آخر لا أعرف عنه شيئًا .. ثقب فى حائط يفصلنا عن عالم مجهول ..

إن هذه الرؤى ليست إنعكاسًا لحالتى النفسية ، وليست وهمًا .. لا يمكن أن يكون هناك وهم بهذه الدقة .. الدانتيللا فى ثياب المرأة وستائر غرفتها وثياب الرجل المتحذلقة .. لم أسمع عن وهم تملؤه الدانتيللا من قبل ..!

والآن أمامى ثلاث خيارات ..

إما أن أصارح (عادل) لعل عقلين هما أفضل من عقل واحد ـ كما يقولون ـ مع استعدادى التام لقبول الاتهام بالعته ..

أو أن أتخلص من هذه المرآة بالبيع أو التحطيم أو (التسريب) لكننى لست ـ حتمًا ـ ممن يفقدون خمس جنيهات بهذه السهولة ..

وإما أن أتجاهل الأمر برُمته متظاهرة أن المرايا المسحورة ليست من الأشياء المرعبة ..!

إن الخيار الأخير يناسبنى لأسباب لا تخفى على أحد ..

وكذا مرّت أيام عدّة والمرآة فى موضعها ..

إلى أن جاء ذلك اليوم ..

★ ★ ★

قرع أحدهم جرس الباب فذهبت لأفتحه .. وكانت (هويدا) شقيقتى ومعها (هانى) خطيـ ... أعنى أحد الأصدقاء .. (*) ، وقد أشاعا جوًا محببًا من المرح فى الدار .. وكان هناك الكثير من الثرثرة والضحك .. خاصة حين انفجرت زجاجة المياه الغازية فى وجه (هانى) وأنا أفتحها ..

ثم إن هذين الوديعين العزيزين فارقانى بعد أن أبديا إعجابهما الشديد بالمرآة ، ذلك الإعجاب الذى اعتدته من كل ضيوفى وكنت أتقبله فى رضا تام .. وأرجوهم أن يرددوه على مسمع من زوجى ..

كان (هانى) شابًا وسيمًا هادئًا كالنهر لا يكف عن الابتسام ..

(*) نسيت (سهام) هنا أن د. (رفعت) موجود .. وهو ثانى خطيب لـ (هويدا) ... كانت زلة لسان تداركتها سريعًا .. لكنها ستكرر نفس الخطأ مرارًا ..!

وكان يتقبل كلماتى القاسية ومداعباتى اللاذعة فى رقة ملائكية حتى أننى كنت أقول لـ (هويدا) إنها مخطو ... أ .. صديقة لجثة ..!..

وكانت هى تضحك أولًا رغمًا عنها ثم تقرر أن تغضب .. وتدمع عيناها وتوصى مرارًا ألا أقول ذلك عنه ..

ما علينا ..

المهم أنهما انصرفا .. فنهضت أعيد للشقة رواءها وأنظف مطفأة السجائر وأعيد زجاجتى المياه الغازية للمطبخ و ...

مرة أخرى تتكلم المرآة ..

هذه المرة كان المشهد مألوفًا ..

نفس منظر الصالة الذى تعكسه دائمًا .. ، لكن كان هناك شىء غير عادى .. ، فبدلًا من أن أرى نفسى حيث وقفت أمامها .. وجدت انعكاس (هانى) و (هويدا) واضحين تمامًا .. وكانا يضحكان .. وفى يدى كانت زجاجة المياه الغازية تبصق رغوتها ..

ذات المشهد الذى حدث منذ عشر دقائق ..

لقد فهمت ما يحدث هنا ..

هذه المرآة تختزن الصور التى تحدث فى مجالها لبعض الوقت ثم تعيد إخراجها فى لحظات عشوائية غير متوقعة ..

كأنها كاميرا تصوير تدوّن الصور على فيلم ثم تعيد عرض ذلك الفيلم فى أوقات بعينها ..

وهذه الأحداث قد تعود إلى الثلاثينات ـ كما تدلنى ثياب المرأة والرجل ـ أو تعود إلى عشر دقائق مضت كما حدث الآن ..

ولكن ما سر هذه المرآة الخبيثة التى تتظاهر إنها انعكاس صورتى ؟..

لن أعرف أبدًا ..

لكنى - على كل حال - أملك أعجب شيء رأيته في حياتى .. ، ولكم من مشاهد عرفت ولكم من أسرار فهمت هذه المرآة !.. كم من جيل مر أمامها وتجمل أمامها ثم ولى بعيدًا ..

إن هذه المرآة خطيرة .. لكنها فاتنة .. فاتنة إلى حدّ لا يُصدّق ..

* * *

إن المرآة تراقبنى ..!

لهذا أخذت واجب الحذر ولم أبد أمامها إلا فى أحسن صورة .. فمن أدرانى أن جيلًا قادمًا لن يجلس أمام زجاجها يطالع أسرارى فى شغف ؟!..

يجب أن أكون صريحة .. لقد كان الفضول أقوى منى .. كنت أجلس الساعات أمامها منتظرة سرًا جديدًا من أسرار ملاكها السابقين وكلى نهم .. كأنها دائرة تلفزيونية مغلقة تتجسس على هؤلاء الناس .. ، إن هذا ليس أخلاقيًا تمامًا لكن التجسس على قوم عاشوا قبلى بعشرات الأعوام ولا أدرى من هم ؛ هذا التجسس لم يبد مشينًا إلى هذا الحدّ ..

رأيت مئات الصور لتلك الغرفة ذات الستائر التى عرفت أنها وردية ..

شاهدت عشرات المرات تلك المرآة تثبت قرطًا أو تطلى شفتيها ..

لمحت أكثر من مرة ذلك الرجل - والواضح أنه كان زوجها - يمشط شعيرات شاربه ..

دعك طبعًا من المرات العديدة التى رأيت فيها نفسى أفعل شيئًا أو آخر .. أو أرمق المرآة فى توجس ..

والمرات العديدة التى رأيت فيها (عادل) يروح هنا وهناك مرتديًا منامته الشهيرة ذات الخطوط الزرقاء الطولية ..

لقد كان كل هذا ممتعًا وأثار شغفى .. ، لم يكن جهاز (التلفزيون) منتشرًا وقتها وبالتأكيد لم يكن لدينا واحد .. ، ولقد جعلتنى هذه المرآة أفهم ما هو (التلفزيون) قبل أن أراه ..

* * *

إلا أن (عادل) بدأ يرتاب فى أمرى ..

وسألنى أكثر من مرة عما إذا كنت أحاول تعلم التنويم المغناطيسى الذاتى ، ثم صارحنى أنه يخشى على حالتى العقلية كثيرًا من حملقتى المستمرة فى هذا السطح الصقيل ..

إلا أننى كنت مبهورة تمامًا حتى كدت أجتاز عالم المرآة كما يحدث فى القصص الخيالية داخلة إلى ذلك العالم المعكوس خلفها ، حيث اليمين يسار والعكس .. وحيث يتقدم المرء للأمام متى سار إلى الخلف ..!.. لم أفعل ذلك بل كدت ..

وفى ذات مساء كنت جالسة وحدى أمامها حين رأيت مشهدًا عجيبًا ..

رأيت (هويدا) و (وهانى) ورأيت نفسى ..

وكانت الوجوه ممتقعة كالحة والحركات عصبية .. ، أنا واثقة تمامًا أن هذا المشهد لم يحدث أمام المرآة قط .. فضلًا عن أننى

لا أملك ثوبًا أزرق بياقته بيضاء ، و (هويدا) لا تملك معطفًا أسود ..

كان (هانى) يتحدث بشراسة غير عادية ويلوح بقبضته .. بينما (هويدا) تدفن رأسها بين كفيها وتبكى ثم ترفع رأسها محاولة إقناعه بشيء ما .. أما أنا فكنت ألعب دور المصلح ما بين الطرفين .. ثم ...

بمنتهى القسوة رفع (هانى) كفه وصفعها ، فهببت ـ كما هو متوقع ـ صارخة محاولة إيقافه مرددة أشياء لابد أنها من قبيل (هل وصلت الأمور إلى هذا الحد ؟.. أتضرب أختى أمامى أيها السافل الوقح ؟!!).. نعم .. لا بد أننى كنت أقول ذلك .. إلا أنه دفعنى دفعا بعيدًا عنه .. وصاح مرددًا شيئًا ما ثم انصرف تاركا المرأتين الباكيتين ..

وبدأت الصورة تذوب ..

وهنا تقلصت أحشائى ..

ما معنى هذا الذى رأيته ؟

إن هذا المشهد لم يحدث قط .. فهل هذه المرآة تتنبأ ؟.. إن كل شىء يؤكد ذلك .. لكن كيف ؟.. وكيف يتبدل الملاك الرقيق (هانى) إلى شيطان يضرب النساء ؟.. ومتى سيحدث ذلك ؟..

أنا واثقة أن المستقبل لا يمكن التنبؤ به .. لكن ما هذا الذى رأيت ؟

هل هو كابوس لا أكثر سببه توترى وخشيتى على مستقبل أختى ؟

لن أدرى أبدًا ..

لكن فكرة لا بأس بها خطرت لى ..

سأعلق تقويمًا على الجدار المقابل للمرآة لتنعكس صورته على زجاجها ..

وهكذا ـ لو شاهدت مرة أخرى مشهدًا مستقبليًا ـ أمكننى أن أعرف تاريخه التقريبى بمجرد نظرة إلى التقويم المعلق خلف ذلك المشهد .. حتى ولو كان الرقم مقلوبًا لكنه مقروء ..

أحضرت مسمارًا ومطرقة وصعدت على مقعد لأعلق التقويم .. .

وهنا تذكرت شيئًا مرعبًا ..

لقد كان شىء يشبه التقويم معلقًا بالفعل على الحائط فوق رأس (هويدا) فى المشهد الذى رأيته منذ دقائق .. لكنى لم أعبأ به كثيرًا ..!

أما الأغرب فحدث عندما عاد (عادل) من عمله ..

لقد نال الترقية ـ أخيرًا ـ إلى رتبة (نقيب) .. وكان سعيدًا كالمهر الصغير ..

وقد اشترى لى هدية لأننى ـ كما قال ـ زوجته الصابرة الباسلة ..

ـ لم أكن أعرف مقاييسك لكن البائعة كانت تماثلك حجمًا وطولا ..

لهذا طلبت منها أن تنتقى ثوبًا يناسبها هى ..

نظرت له فى جزع .. وبشفتين مرتجفتين سألته :

ـ (عادل) .. هل هو ثوب أزرق ذو ياقة بيضاء ؟..

تبدلت نظرته الودود إلى دهشة لا حد لها .. وسألنى :

ـ .. وكيف عرفت ؟!!

* * *

ـ ٢ ـ

عند هذا الجزء من القصة كان (شكرى) قد وصل لقمة الاستثارة وشرع يشعل سيجارة تلو الأخرى ، فى حين تصلبت (هويدا) فى مقعدها وقد بدا واضحًا أنها تسمع القصة للمرة الأولى برغم الدور الذى لعبته فيها ، ولم يفتنى أن ألاحظ ـ فى خبث ـ النظرة الجانبية التى اختلستها مدام (ثريا) للمرآة الكبيرة المعلقة فى القاعة ..

قال (شكرى) وهو يعابث لحيته وقد اتسعت عيناه :

ـ إن هذه القصة تلعب على وترين .. الخوف الكامن فى الإنسان من المرايا .. ثم الخوف من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم ..

قالت (سهام) فى ضجر :

ـ لم أفلسف الأمر مثلك وقتها .. كنت متوجسة فحسب ..

قال (شكرى) وقد بدأ (يتألق) حقًا :

ـ لكنك لمست معنى الرعب الحق ..

ـ أستاذ (شكرى) ..

قلتها فى كياسة .. فنظر لى متسائلا .. استطردت :

ـ كلنا نعرف أنك إنسان ذكى ورائع .. فهلا تركتها تكمل القصة ؟!

نظر لى هنيهة باحثًا عن ردّ يخرسنى .. ثم آثر السلامة وأشار لها فى استسلام كى تكمل كلامها ..

* * *

قالت (سهام) :

صار الأمر شبه مؤكد بالنسبة لى خاصة حين علمت أن (هويدا)

ابتاعت معطفًا أسود بعد يومين من هذا الحادث .. أى أن الأمر صار ممهدًا تمامًا للمشاجرة التى سيكشف فيها (هانى) عن أنياب شراسته ..

هل أنذرها ؟.. لا أدرى .. أنا متأكدة من استحالة التنبؤ .. لكن كيف تحتشد كل هذه المصادفات ؟.. إن رأسى يكاد ينفجر حقًا ..

وساعات أطول أقضيها أمام تلك المرآة اللعينة ..

ذات مرة شاهدت تلك المرأة جالسة أمام المرآة .. وكانت تتزين كعادتها على الجانب الآخر من الجدار الزجاجى ، ثم رأيت الرجل يدخل ويقف خلفها وتدور بينهما محادثة شبه غاضبة ، لم تدر رأسها نحوه لكنى فهمت أنها تحدّث انعكاسة فى المرآة متعمدة تجاهله ..

كان الرجل يلوح بخطاب معين ويزمجر .. وبدت هى مشدوهة لكنها تحاول التظاهر أنها أقوى ..

ثم .. تصلبت عيناها .. ورأيت الرجل يمدّ يده فى جيب بدلته ويخرج مسدسًا صغيرًا جميل الشكل ويصوبه نحو رأسها ... و ...

ذابت الصورة وعدت أرى انعكاس وجهى ..

كان وجهى ـ فى المرآة ـ يضحك بخبث .. ثم .. غمزة ماكرة بالعين اليسرى جعلتنى أقفز مترًا إلى الوراء ..!.. لم أكن أنا صاحبة الغمزة .. وإلا فأنا على حافة الجنون ولا أدرى شيئًا عن نفسى ..

ما معنى هذا الذى رأيت ؟..

لا جدال هنالك ..

لقد رأيت شروعا في جريمة قتل حدث في مكان ما من أربعينات هذا القرن ..
ولا يمكن أن تكون هذه الصورة وليدة عقلي الباطن ..
ولكن من قتل من ؟..

* * *

بعد أيام فوجئت بمشهد أكثر غرابة ..
ذرات رمل وأحجار تملأ المشهد وتحيله ظلاما تاما .. لا شيء على الإطلاق يمكن تبينه أو استيضاحه .. فما معنى هذا ؟..
ثم عادت الصورة تعكس وجهي كالعادة ..
وهنا دق جرس الباب ..
لم يكن (عادل) في الدار بسبب استغراقه في إحدى المأموريات .. لذا ذهبت وفتحت الباب وكان القادمان هما (هويدا) و (هاني) .. ، (هاني) الوديع الرقيق الذي يتدفق حياء وبرغم هذا لم أستطع أن أستريح له .. لقد سمعت هذه المرآة نظرتي له إلى الأبد ، لقد تحدث الأستاذ (شكري) و د. (رفعت) عن الأشخاص الودودين أكثر من اللازم .. ، وهذا الخوف موجود في قصص كثيرة .. إن الساحرة تدعو (هانز) و (جريتل) إلى تناول الفطائر لأنها تريد التهامهما .. ساحر (علاء الدين) يتظاهر بأنه أصدق أصدقاء أبيه ..
علمونا هذا ونحن بعد أطفال ، لهذا كنت على استعداد تام لأن أمقت هذا الفتى ..

الشيء الأسوأ هنا هو أن (هويدا) كانت ترتدي معطفها الأسود !!..
جلست (هويدا) تشكو لي مضايقات البحث عن شقة .. وبدأت تلوم (هاني) على تراخيه .. ، من ثم بدأ يحتد ويدافع عن نفسه بعصبية ..
إلى هنا – قلت لنفسي – ليس الموقف موقف صفعات .. ولن يزيد عن مشاجرة عادية .. لن يزيد عن ذلك أبدا ..
وهنا قالت (هويدا) في حنق :
– دعينا من هذا البائس .. وحدثينا عن نفسك ..
– أنا بائس ؟!
كان الغضب يلتمع في عينيه .. يا لك من معتوهة يا (هويدا) .. ، إنها لا تغيره اهتماما .. بل وتقول لي محاولة تغيير الموضوع :
– أريد أن أرى الثوب الجديد الذي ابتاعه لك (عادل) ..!!
– الـ .. الثوب الأزرق ..؟!
– نعم .. نعم .. ذو الياقة البيضاء ! .. ارتديه ودعيني أراه عليك !!
– مسـ .. مستحيل !!
كنت أدافع عن سعادة أختي وسعادتي .. لن يجرؤ مخلوق على إرغامي على ارتداء هذا الثوب .. ، ولولا أنه هدية من (عادل) لحرقته .. ، إنها تلح – الحمقاء – لأنها لا تعلم شيئا .. ولا تعلم أن (هاني) سيصفعها أمامي بعد دقائق ..

وهنا لاحظت أن صورة المرآة تتبدل ..
لقد صرت مدربة تمامًا على معرفة هذه اللحظات ..
لم يلاحظا قط أننى أنظر إلى المرآة لأننى لم أكف عن الكلام وأنا أرمقها بطرف عينى :
ـ .. إنه مغسول .. ثم إنه ...
رأيتُ صورة (عادل) يصيح فى عصبية .. وأنا أردد شيئًا ما فى هلع وأحاول منعه .. ، ثم .. التقويم يشير إلى أن هذا سيحدث بعد أسبوع ..
ـ .. ضيق جدًا ولا يناسبنى .. و ...
(عادل) ـ فى المرآة ـ يمدّ يده لجيبه ويخرج مسدسه ويصوبه نحوى ..
ـ .. ولونه ليس ...
وفقدت سيطرتى على أعصابى ..
انفجرت أبكى فى حرقة .. حتى (عادل) أيضًا لن أثق فيه بعد اليوم .. وقد قالت المرآة أنه سيحاول قتلى .. ، (هويدا) و (هانى) يتساءلان فى جزع عما دهانى ويطيبان خاطرى ، إن المرأة التى تبكى حين تتحدث عن ثوب جديد هى ـ دون شك ـ مصابة بالعته ..
حين انصرفا فى النهاية كنت منهارة تمامًا .. وآليت أن أخبر (عادل) بكل شىء ..

* * *

ما أرقك يا (عادل) !!

ربما تتقلب بنا الأيام وتتولد خلافات لم نتوقعها ..
لكنى سأظل مدينة لك أبدًا بالبساطة والتلقائية وقابلية التصديق التى أبديتها نحو كلماتى ، لم يتهمك أحد قط بأنك مرهف الحس ولا أنك متفهم ..
لكنك ـ من أجلى فقط ـ ارتكبت هذه الخطيئة : إظهار الحنان !..
نهض (عادل) إلى المرآة وتفحصها فى شك ، ثم أشعل سيجارة وقال :
ـ أنت حمقاء يا (سهام) .. إذ أننى بالتأكيد أتوق إلى خنقك لكنى لن أطلق عليك الرصاص لأى سبب ..!
ثم قلب إطار المرآة وتأمله :
ـ فى البدء يجب أن نعرف ما إذا كانت هذه الرؤى خاصة بك أم أننى قادر أيضًا على رؤيتها .. ، ثم نحاول معرفة مصدر هذه المرآة ..
قلت فى حذر محاولة ألا أبدو حمقاء :
ـ (عادل) .. لماذا لم تتهمنى بالخرف .. وبأن بقائى وحيدة فى الدار قد أنهك أعصابى ..؟..
ـ لأن هذا غير صحيح ..!
وهكذا .. مضت الساعات و (عادل) جالس فى مقعده يتأمل المرآة حتى أننى بدأت أفهم شكه فى حالتى العقلية حين كنت مكانه ..
ساعة تلو الساعة يجلس فى مقعده يدخن ويصغى للراديو ..
ولا بد أنها كانت الواحدة صباحًا حين سمعت صوته الملهوف

يناديني ، فهرعت حافية القدمين لأرى ما هنالك .. إلا أننى وجدت انعكاسًا بريئًا لوجهينا على الزجاج ، وقال (عادل) فى ارتباك .. وهو يخشى ألا أصدقه :

ـ لقد حدث ... رأيت .. رأيت ..

ـ نعم .. ماذا رأيت ؟

ـ رأيت فتاة شابة تنظر لى فى ذهول وقد بدا أن الخوف يقتلها ..

ـ وكيف كان طراز ثيابها ؟..

هرش رأسه فى حيرة :

ـ لا أدرى .. مثل أفلام الخمسينات .. تقريبًا ..

ـ إذن هى مالكة المرآة بعد الرجل والمرآة ..

نظر لى (عادل) بعينين زائغتين .. ثم قرر أن يواصل المشاهدة وأمرنى أن أنام لأن سهرته ستمتد طويلًا ..

* * *

حين صحوت فى الصباح وجدته ما زال جالسًا ..

كانت مطفأة السجائر طافحة بالأعقاب ، وفى عينيه لمحت نظرة غريبة ..

نظرة شك لم أرها من قبل ..

ـ (عادل) .. هل ثمة شىء جديد ؟

نظر لى فى شرود .. ثم هز رأسه أن لا .. ، ونهض إلى غرفته ليرتدى ثيابه استعدادًا للذهاب للعمل طالبًا من أن أعد له فنجان قهوة ..

ـ ولن تتناول إفطارًا ؟..

ـ لا ...!

قالها فى عصبية لا مبرر لها .. ، وانصرف تاركًا إياى غارقة فى أفكار سوداء عن سرّ تبدل أطواره .. ، إن الأمر يتعلق ـ بالتأكيد ـ بشىء رآه فى المرآة فى تلك الليلة .. فما هو ؟

أستطيع أن أجبره على الكلام فيما بعد .. أما الآن فإن الدار متسخة كحظيرة جياد .. وعلىّ أن أنظف كل هذا ..

وهنا ـ أعترف ـ أقول أن تنظيف ما تحت السجاجيد ليس هواية محببة لدى ، ولربما فعلت ذلك كل شهرين مع الماء .. لكن الوقت قد حان لذلك اليوم ..

بدأت بقلب جوانب السجادة كاشفة عما تحتها حين وجدت الوريقة .. الوريقة القديمة التى دسها أحدهم فى إطار المرآة وعجزت أنا عن فتحها .. ترى ما الموجود فيها ؟.. إن الأمر لم يثر اهتمامى يوم ابتعت المرآة ، أما اليوم فالفضول يقتلنى .. ، أحضرت قطعتين من القطن وشرعت أحاول برفق فتح الورقة التى اهترأت تمامًا من محاولتى الخرقاء الأولى .. ، ها هو ذا شىء ما يتبدى لعينى .. كتابة بحروف لاتينية .. بلغة لا أعرفها (أنا لا أجيد سوى بعض الإنجليزية وأعرف الفرنسية من منظرها فقط) .. لهذا فردتُ الورقة ودسستها تحت زجاج (البوفيه) حتى يحضر (عادل) ..

وهنا دوى صوت الباب ينفتح ..



وجدت رجلاً ضخم الجثة ـ واضح أنه مخبر ـ يهوى فوق المرآة بمطرقة كبيرة محاولاً تهشيمها ..

دخل (عادل) فى عصبية .. ، وهز رأسه محييًا .. وتساءل :

ـ وحدك ؟.. حسن .. إن معى بعض الزملاء .. أعدى لنا ثلاثة أكواب من الشاى .. شاى ثقيل ..

دخلت المطبخ لأشعل الموقد وأضع البرّاد حين سمعت صوت قرعات متتالية آتيا من الصالة ، تسللت برأسى لأرى ما هنالك ، فوجدت رجلًا ضخم الجثة ـ واضح أنه مخبر ـ يهوى فوق المرآة بمطرقة كبيرة محاولًا تهشيمها .. إن أية مرآة تحترم نفسها تتهشم بعد ضربة واحدة أما هذه اللعينة فتحملت عشرات منها دون جدوى ..

تبادل (عادل) نظرة ذات مغزى مع رجل أشيب الشعر يقف بجواره .. ثم أخرج مسدسه وركّب شيئًا طويلًا على فوهته (فهمت أن هذا كاتم صوت كى لا يفزع الجيران) وصوّبه نحو المرآة .. دوت عدة طلقات مكتومة لكن شيئًا لم يحدث ..!.. إرتدت الطلقات متدحرجة على الأرض ..

ـ ما رأيك يا د. (سامى) ؟..

سأل الرجل الأشيب .. فهز هذا رأسه فى حيرة .. ، ثم قال بصوت رزين :

ـ أقترح دفنها فى هوة سحيقة بالجبل ..

وهنا صاح المخبر فى هلع مشيرًا إلى المرآة :

ـ إنها تضحك .. تضحك !

خرجت من المطبخ لأرى ما هنالك .. كانت انعكاسات الوجوه فى

المرآة تشير لنا وتضحك فى سخرية !.. إن فشلنا فى تدميرها قد راق لها إلى أقصى حد .. ، حتى أنها لم تعد تخفى ذلك ..

شرع المخبر يحوقل ويبسمل .. فى حين ظل (عادل) يرمق المرآة فى صرامة .. كانت لحيته نامية وإرهاق ليلة أمس مرتسمًا على تجاعيد وجهه .. إلا أنه كان قد وصل لقراره ..

ـ (بيومى) .. أحمل هذه المرآة وضعها فى (البوكس) ..

وهنا أصدرت وسوسة بشفتى منادية (عادل) ، فهرع ليرى ما بى وقد بدا عليه شىء من الضيق لخروجى من المطبخ . قلت له هامسة :

ـ من هؤلاء ؟

ـ مخبر عندى وأستاذ أمراض نفسية من أصدقائى القدامى ..

ـ وهل عرفت شيئًا عن المرآة ؟

ـ وجدنا بائعك .. وعرفنا منه أنه ابتاع المرآة من مخلفات بيت مهندس رى .. وكان هذا قد ابتاعها من مزاد صودرت فيه أملاك أحد أعيان ما قبل الثورة .. والملاحظ هنا أنه ..

ـ ماذا ؟

ـ كل من امتلكوا هذه المرآة قُتلوا أو انتحروا .. كلهم .. لقد جلبت هذه المرآة الخراب لبيوت عدة ..

ـ وهل رأيت شيئًا أمس ؟

احمر وجهه وهمس فى ضيق :

ـ أشياء مشينة .. بخصوصك .. ، إن هذه المرآة اللعينة كانت تبذر الشك فى نفسى تجاهك طيلة الليل ..!

ـ ولهذا جئت على غير موعد وسألت إن كنت وحدى ؟!!

نظر لى فى حيرة .. ولم يرد .. ثم أنه أدار ظهره ليلحق بالرجلين لولا أن ناديته مرة أخرى :

ـ (عادل) .. الورقة تحت زجاج (البوفيه) كانت فى المرآة .. لا أدرى بأية لغة كتبت ..

إتجه على الفور ومدّ أظافره ليخرج الورقة ..

ثم إنه نادى الرجل الأشيب وشرعا يتفحصانها .. ، هتف الرجل فى ثقة وهو يتأمل الورقة :

ـ لاتينية .. لغة لاتينية .. أنا أقرؤها إلى حد ما .. فلنر ذلك .. الشيطان يسكن هـ .. هذه الـ .. هذه المرآة .. لا .. لا تصدقوا ما .. منه .. ترونه منه ..

ثم رفع رأسه مرددًا العبارة كاملة :

ـ إن الشيطان يسكن هذه المرآة فلا تصدقوا ما يريه لكم ..

نظر له (عادل) فى حيرة .. وهمس ..

ـ ومن تظنه كتبها ؟

ـ لن نعرف أبدًا .. لكنه كان صادقًا .. هذه المرآة تعابث من يملكها وتريه أحداثًا من الماضى وأحداثًا كاذبة من المستقبل .. وبالتالى تختلط عليه الحقائق ويجنّ أو يؤذى أحباءه .. ، على أنها كانت صادقة فى نبوءة واحدة ..

ـ وما هى ؟

ـ منظر الأحجار الذى ملأ صورتها .. كانت تعرف تمامًا أنها ستنتهى حياتها دفينة فى الجبل بين الصخور .. وهو عقاب تستحقه تمامًا ..

ـ إذن فلنسرع بإنهاء هذه المأساة ..

وسمعت جلبتهم إذ ينصرفون ..

وسمعت انغلاق الباب ..

فخرجت وحدى إلى الصالة أنظر إلى الركن الفارغ الذى احتلته المرآة لشهر كامل .. الركن الذى غدا بالتدريج أهم أركان الدار ..

فشعرت بحنين لا يمكن تبريره ..!

هل أنا حقًا عاطفية وحمقاء إلى هذا الحد ؟..

* * *

القصة الثانية

لماذا ارتجف القط ؟..!

يحكيها : د. (محمد)

- ١ -

قالت (سهام) وهى ترشف (الكاكاو) :

- ماذا تقولون عن هذه القصة ؟..

قالت (هويدا) مبتسمة :

- إذا ما تناسينا أننى لا أعرفها بتاتًا ، يمكن القول أنها غريبة .. لكنها غير مرعبة ..

قلت وأنا أشعل سيجارة أخرى :

- بالعكس .. هى مرعبة لكنها غير غريبة .. إن (كوابيس المرآة) قديمة قدم المرآة نفسها ، على أن إحساس الناس بالرعب يتفاوت بتفاوت سعة خيالهم ..

ونظرت نحو د. (سامى) مبتسمًا :

- إذن أنت تعرف هذه القصة .. وظللت صامتًا كل الوقت .

- الرجل المهذب هو من يتحمل سماع النكتة لنهايتها قبل أن يعلن أنها قديمة ..

- كلام لا بأس به .. والآن .. فليقل د. (محمد شاهين) قصته ..

أجفل الرجل الطيب - وكان موشكًا على النوم - وصاح فى ارتباك وهو يجلس معتدلًا :

- ماذا ؟.. ولماذا أنا بعدها ؟

- إنها الحروف الأبجدية .. (سهام) ثم (محمد) ..

- آه .. إذا كان الأمر كذلك .. إن قصتى ..

ثم تذكر شيئًا .. فنظر لى معاتبًا .. وهتف وقد (تبيَّن) أننى أتلاعب به ..

- أية حروف أبجدية ؟.. لو كان هذا صحيحًا لبدأت مدام (ثريا) ثم تلاها د. (رفعت) .. ثم ..

كدت أموت غيظًا فقلت له ماضغًا (فيلتر) السيجارة :

- .. إذن .. الترتيب بحسب السن ..!

تنهد فى ارتياح وقال :

- ما دام الأمر كذلك لا مشكلة هنالك .. والآن اصغوا لى ....

* * *

قال د. (محمد) :

كما قلت لكم من قبل .. إن لغرائز الحيوان هيبة واحترامًا فى نفوسنا نحن البشر الذين أوهنت الحضارة حواسنا .. ، إن الحيوان يرى أفضل منا ويشم أفضل منا ويسمع أفضل منا .. أما الأهم فهو أن الحيوان يملك حاسة الخطر .. الحاسة التى لا نملك منها سوى النزر اليسير أو لا نملكها على الإطلاق ..

* * *

كنت طالبًا قرويًا بسيطًا أعيش فى (القاهرة) المدينة الصاخبة القاسية التى لا ترحم .. ، كانت الحرب قد انتهت منذ أعوام واستسلمت (ألمانيا) .. وكانت هناك حركات ثورية تغلى واضطرابات وآمال كبار .. ، لكنى كنت بعيدًا عن كل هذا فى قوقعتى الخاصة ..

كان رفاقى فى الجامعة يثرثرون ويرافقون الفتيات ويمرحون ويتأنقون ..

لكنى كنت منزويًا فى حياتى الريفى الطبيعى .. والأمل الخافت الذى لا ينفك يراودنى : ستفخرون يومًا أنكم عرفتمونى ..!

أى ضير فى أن تسخر الفتيات من حذائى ؟.. لقد سخرت فتاة من (بنيامين فرانكلين) يومًا ما وأطلقت عليه (الكائن العجيب) ثم لم تلبث أن قبلت بكل فخار أن تكون زوجته حين صار المصلح والعالم الأمريكى الأشهر ..

أى ضير فى أن يتهكم الشباب على ثيابى ؟.. إن (بيتهوفن) كان كريه الرائحة قليل الاستحمام .. و (ألكسندر دوماس) كان قبيحًا كقرد .. وحتى (أينشتاين) اتهمه مدرسوه بالتخلف العقلى ..

كنت واثقًا أننى أصنع نفسى ..

وكنت أجد ما بين صفحات الكتب ما ينسينى عذاب اللحظة ..

لكن شعورًا واحدًا كان يمزق فؤادى ..

الوحـدة ..!

الوحدة المريرة التى لن أتحملها يومًا آخر بأى حال ..

كنت أعيش فى غرفة حقيرة فى أحد أحياء القاهرة الشعبية .. وكانت بعض أسر العمال تسكن جوارى ، فلم يمنعنى هذا من إدراك أية متعة يعيشها هؤلاء البؤساء بين أسرهم .. صوت الضحكات .. لعب الأطفال .. الشجار .. عبارات السباب .. كل هذا كان يمزقنى تمزيقًا ، وحتى قشور البطيخ الملقاة فى الزقاق كانت تؤلمنى .. فهى كميات أكبر بكثير مما يستطيع شخص واحد أن يلتهمه ..!

كنت أحيا فى هذا الجحيم ..

وبدأت أفهم لماذا يتزوج البشر .. إنه الضمان الوحيد كى تجد إنسانًا آخر ملكك لا يتركك وحيدًا أبدًا ..

كنت غارقًا فى لجة الكآبة حين قابلت (جمعة) ..!

كان صغيرًا بحجم قبضة اليد .. قذرًا كمصرف للمجارى .. شرسًا كالنمر .. جائعًا كسمكة وليدة .. تعسًا كالشيطان .. وحيدًا مثلى ..

هنالك أمام بابى وجدته .. مجرد قط وليد منبوذ يرتجف بردًا وجوعًا ويموء بتلك الطريقة الصامتة الواهنة التى تجيدها القطط وتسلب بها قلوبنا ..

حملته إلى الحجرة .. ووضعته فى سلة الخبز الفارغة التى أرسلتها لى (الحاجة) من قريتى ، وأحضرت له بعض الفاصوليا التى كنت قد طهوتها لنفسى فأعرض عنها فى اشمئزاز مبديًا رأيًا لا بأس به فى طهوى ..

فتحت له علبة من السمك المحفوظ وشرعت أضع أمامه قطعًا منها فذاقها بلسانه أولًا .. ثم بدأ يأكل ..

حين انتهى راح يلعق أسنانه بلسانه ، فحملته فى قبضتى إلى صنبور الماء وغسلت جسده وسط محاولات إفلاته المضحكة ومواءه الرفيع (من حسن الحظ أننا كنا فى (يوليو) لأن غسيل القطط الصغيرة تحت الصنبور خطأ قاتل !) .

ثم جففته وشرعت أرمق شعره الثائر المحتشد فى أشواك ..

وكان هذا هو الحب الأول فى حياتى ...!..

أسميته (جمعة) لأننى كنت مثل (روبنسون كروزو) [*] وحيدًا فى جزيرة قصية إلى أن وجد صحبة ، وهذه الصحبة كانت بدائيًا جاءه فى يوم جمعة ، فأسماه بنفس الإسم ..

(*) قصة (دانييل ديفو) الذى يؤكد أنه استوحاها من بحار اسمه (ألكسندر سلكيرك) . لكن التشابه بينها وبين أسطورة (حى بن يقظان) يثير الشك حول (ديفو) .

لقد غير (جمعة) حياتي تمامًا ..
صار لى هدف أحيا من أجله وأعود لدارى من أجله ..
كان يرقد على قدمى حين أنام .. ويلعق وجهى مع شعاع الفجر الأول .. ويرتمى على ظهره معابثًا خفى .. ، ثم يتربع على مكتبى الحقير أمامى إذا أدرس مُصدرًا ذاك الهرير الرائع المنتظم ..
الواقع أننى كنت أملك يقينًا لا يتزعزع أن هذا القط هو أخى ..
فقط هو مصاب بعيب خلقى بسيط يجعله يمشي على أربع ويأكل السمك ويموء ، ولابد لى أن أقبله كما هو لأنى أحبه !..
ظلت الأيام تدور بنا ..
وفى الأوقات القليلة التى كنت أفارقه فيها إلى قريتى كنت أعطى مفتاح الحجرة لـ (آمال) إبنة الجيران كى تطعمه ..
كان هذا فى الفترة السابقة للقائى بـ (داغر) ..

★ ★ ★

اسمه عجيب .. أعلم ذلك ..
لكن وجهه أكثر غرابة .. فهو شاحب اللون رمادى العينين تتطاير خصلات شعره الأبيض فى الهواء .. ضخم .. مهيب .. ، وكانوا يقولون أنه من أصل تركى يبرر مظهره غير المألوف واسمه العجيب ..
وكان من أوائل الشباب الرقيع الذى تخلى عن الطربوش .. وبرغم أن كثيرين قد حذوا حذوه فى تلك الأيام ـ أواخر الأربعينات ـ إلا أنه كان أولهم ..
قابلته فى الجامعة بدرس الفلسفة ..

كان على النقيض منى فى كل شىء .. ولن أشرح كيف ..
لكنه كان شخصية مغناطيسية يلعب ذات الدور الذى تلعبه البللورة الصغيرة حين تعلقها فى سائل مُشبَع .. ، إنه مركز تبلور .. وآراؤه وكلماته تغدو هى (الرأى العام) بعد أيام من قولها ..
ومن اللحظة الأولى أدركت أنه لن يكون صديقى ..
لكن (داغر) أصرّ على العكس ..
وكان له ما أراد ..

★ ★ ★

كنت جالسًا فى المكتبة أطالع بعض كتب علم الأجناس حين وجدته يتخذ مقعده جوارى .. ، العطر الغريب الذى يذكرك بشىء لا تدرى كنهه وأنامله الدقيقة كأنامل أفضل عازف البيانو ..
قال لى وهو يقلب صفحات كتاب :
ـ إننا زميلان .. هل تعرف ذلك ؟.. إذن لماذا لا نتعرف ؟
ـ (محمد شحاته) .. من إحدى قرى (القليوبية) ..
ابتسم فى شىء من الرقة الممزوجة بالتهكم .. وقال :
ـ إسمى (داغر) .. (داغر السفير) .. وعلى كل حال أنا لم أطلب معرفة محافظتك ..
ـ هى العادة لا أكثر ..
وبدأنا نتحدث .. كان مسليًا وواسع العلم لكنى لم أستطع أن أحبه .. نفور لا سبب له ينتابنى تجاهه ، ذلك النفور الذى فسرته بحقدى المحتوم على طالب مثله يملك كل شىء ..
لكنه كان لزجًا كالذبابة .. ، كانت نظراته محملقة ثابتة إلى درجة مزعجة تسلبك حريتك تمامًا .

الخلاصة أنه كسب أرضًا بعد هذه المحادثة .، وصار من حقه أن يجذب مقعدًا إلى جوارى فى أى مكان أجلس فيه دون أن أتمكن من الاعتراض ..

هل هو اجتماعى إلى هذا الحدّ الذى يحرص معه على ألا يفلت طالب من دائرته ؟.. أم هو يتسلى بهذا النمط الساذج الغريب الذى كنته ؟..

إن لديه أصدقاء كثيرين ويمكنه دائمًا أن يشغل وقت فراغه ..

بل أنه ـ صدق أو لا تصدق ـ طلب زيارة دارى ..!

كدت أجن .. وطفقت أولول وأصرخ وأؤكد له أن دارى ليست دارًا بل هى أقرب إلى الحظيرة أو السوق أو مخزن الكرار .. ، وأنه حتمًا لن يحب رؤيتها فضلًا عن دخولها .. فلا داعى لهذا التودد ..

إلا أنه إبتسم فى لزوجة .. وأكد لى :

ـ إننى على غير ما تحسب .. وجميع الأماكن عندى سواء ..

ـ ما دمت مصرًا .. ، على الأقل سأجد لك كوبًا مكسورًا هنا أو هناك يصلح لتشرب فيه شايًا .. !

ـ كما تريد ..

* * *

وفى مساء الأربعاء أولجت مفتاح الباب فى القفل .. ودخلت الغرفة ومعى هذا الأخ المتودد .. وشرعت أزيح الزجاجات المكسورة والخرق وعلب السمك المحفوظ الفارغة التى تسد طريقه إلى المقعد الخشبى الوحيد ..

ـ ليست غرفتك بشعة إلى هذا الحدّ .. تبدو لى كغرف الرسامين التأثيريين فى (مونبارناس) .

لم أفهم هذه العبارة لكنها أكدت لى أنه قد سافر إلى هذه الـ .. الـ .. مونبراس مرارًا .. ولا بد أنه مكان رائع فيما عدا غرف الرسامين التأثيريين القذرة التى تملؤه ! ، ما علينا .. سأعرّفه بأخى السنورى (جمعه) الذى سيعطى لحديثنا أرضًا أوسع .. خاصة وكل الناس مولعون بالحديث عن الحيوانات والأطفال ..

ـ (جمعة) ..!.. أين أنت ؟ .. أيها الهرّ السخيف ..!

ـ هل لديك هرّ ؟

سألنى وقد تبدل تعبير الارتياح المرتسم على وجهه .. لا أكذب إذا قلت أنه بدا قلقًا ومتوترًا ..

سألته فى مداعبة واضحة :

ـ يبدو أنك لا تحب القطط ؟

ـ .. ولا الحيوانات عمومًا ..

ـ ولكن صبرًا حتى ترى (جمعة) ..

وركعت تحت الفراش باحثًا عن ذلك القط العنيد ..

كان هنالك فى الركن المظلم متكورًا حول نفسه وقد انتفشت شعيراته والتمعت عيناه فى الضوء كفيروزتين ، وكان يصدر زئيرًا متوترًا غير عادى .. فلما مددت يدى نحوه أصدر فحيح الأفعى ..

إن هذا القط خجول أكثر مما توقعت ..

امتدت يد (داغر) إلى ظهرى حيث انحنيت راكعًا تحت الفراش ..

سمعت صوته الرخيم العميق يغمغم :

ـ دعك منه الآن ..



وركعت تحت الفراش باحثًا عن ذلك القط العنيد ..

كان هنالك في الركن المظلم متكورًا حول نفسه ..

فليكن .. ، وعدت أزحف على ركبتى خارجًا ، ووقفت على قدمى أمام الفتى الذى مد يده يزيل شيئًا ما من على ذقنى .. ويبتسم :

ـ وجهك غارق فى الغبار وخيوط العناكب ..

ـ لقد أنذرتك ..

وعلى السقف تحرك صديقى البُرص مغادرًا داره ما بين ألواح الخشب التى تدعم الحجرة .. ، وهو حدث غير مألوف فى هذه الآونة من العام . لكنه حدث وأرجو ألا يلاحظ ضيفى ذلك ..

دعوته للجلوس فجلس على مكتبى المتهالك الذى أدرس عليه كيف أكون أعظم إنسان فى العالم ، وبدأ يتحسس كتبى بيد فضولية ..

ـ تدرس كثيرًا ..

ـ ليس لدى عمل آخر ..

ـ قراءاتك متنوعة ..

ـ إنه ذلك الظمأ المقدس للمعرفة ..

وشرعت أعدّ له كوبًا من الشاى مكتشفًا ـ فى كل ثانية ـ أية حياة حقيرة أحياها وأية هاوية أنا مترد فيها ، وهو الاكتشاف الذى كان يعاودنى كلما زارنى أحدهم .. لا يوجد برّاد نظيف .. لا ملعقة غير صدئة .. لا كوبًا غير مشروخ .. تبًا لها من حياة ..!

على أنه لم يبد مهتمًا بكل هذا ..

بل أنه أخذ كوب الشاى بتؤدة ونوع من الامتنان .. ثم أخرج علبة تبغ جلدية أنيقة وناولنى لفافة رفضتها شاكرًا :

ـ لا أدخن .. شكرًا ..

أشعل لفافته فى تؤدة وبحث بعينيه عن مطفأة لكنى أشرت له ألا مانع من إلقاء الرماد على الأرضية .. ، بدأ يدخن لحظات .. ثم قال لى :

ـ أنت لا تدخن .. وتقضى الوقت فى الدراسة .. إنك نموذج الطالب المجد الذى كنا نرى صورته فى كتب المطالعة الابتدائية ..

سرّنى هذا المديح لكنى فطنت إلى أنه كان يتهكم .. إذ أردف :

ـ .. وطبعا تتوقع أنك تبذر بذور مجدك وأن هذه الغرفة هى الشرنقة التى ستحلق منها فراشة آمالك ..

ـ لا أدرى .. لكننى أحاول ..

قال لفظة فرنسية لم أدر معناها .. لكنها ـ بالتأكيد ـ تحمل معنى الهباء أو كما نقول (كان غيرك أشطر) .. ثم أنه رشف جرعة شاى .. وقال :

ـ أنت غارق فى الحلقة الدامية الشهيرة .. من لا يستحق يجد .. ومن يستحق لا يجد .. ومن الحمق أن تظن أن هذه الحلقة كانت تنتظرك دون ملايين البشر كى تحطمها ..

آه !.. ها نحن أولاء قد بدأنا نغمة التعالى .. هو ذا ذلك المدلل ابن المدينة يحاول بمقص من منطق أن يزيل جناحىّ ..

قلت فى فتور :

ـ لكنى أحاول .. أليس كذلك ؟..

لمس نغمة الجفاء فى صوتى فقرر أن يتبسط قليلا .. وبدأ يثرثر عن (العقاد) و (طه حسين) ومعارك الأحزاب .. إلخ ..

ليت كلب الجيران يكف عن النباح لحظة .. ماذا دهاه هذا المخبول ؟

مضت لحظات ونباح الكلب مستمر ويتعالى .. مع صوت سباب من جارى أبى (آمال) يصف كلبه بأقذع النعوت ..

توتر (داغر) بعض الشىء وبدا أنه غير قادر على الاستمرار .. ثم كوّر بقايا لفافة تبغه ورمى بها أرضا .. وتنهد :

ـ سنواصل حديثنا فى وقت آخر ..

وتهيأ للانصراف مما سرّنى كثيرًا وإن تظاهرت بالعكس .. وعلى باب الحجرة استدار وتشمّم الهواء الراكد .. وهتف :

ـ تذكر .. أنت تستحق ما هو أفضل ..

* * *

حين عدت لغرفتى شعرت بروحى تضيق حتى لتتصاعد إلى السماء .. لقد نجح هذا الوغد فى إفساد التعود الذى كنت أستعين به على حياتى ، ورغم أننى ريفى فإن دارنا كانت أجمل وأنظف من هذه الغرفة مئات المرات ..

لا تظلمونى يا رفاق ..

ربما أنا ضعيف الشخصية أو طيب القلب لكن ليس إلى هذا الحد ..

ومهما كان أحدكم يحبّ زوجته فهو خليق بأن يمقتها إذا ظلّ هناك من يقبحها فى عينه ليلًا نهارًا ..

إن الرضا كوب من الحليب تكفى ذبابة انتقاد واحدة كى تعكره إلى الأبد ..

أما المشكلة الحقيقية فكانت مع (جمعة) ..

إن هذا الهرّ الأبله كان متوترًا متحفزًا بشكل غير عادى ، بل إنه

ظل يرتجف طيلة الساعتين التاليتين وعزف عن الأكل حتى كدت أموت رعبًا عليه ..

كانت العاشرة مساءً حين قرعت الباب (آمال) ..

ابتسمتُ في رقة معتقدًا أنها جاءت بعذر مختلق لمجرد أن تتبادل كلمتين أو ثلاثًا معي قبل أن تأوي لفراشها .. صحيح أن هذه الفتاة لم تبد مطلقًا أي اهتمام بي لكني كنت أضع (بنيامين فرانكلين) نصب عيني ..!

لكنها كانت جادة ..

كانت متوترة حقيقة لا تمثيلًا ..

وقالت وهي تبتعد عن الباب في حياء :

ـ .. لا مؤاخذه يا سي (محمد) على مضايقتك .. ولكني كنت عائدة لنبيت حين رأيت هذا ..

ـ رأيت ماذا يا (آمال) ؟

أشارت إلى الأرض .. إلى عتبة غرفتي الخشبية .. وتساءلت :

ـ .. من أين يأتي كل هذا النمل ؟.. ولماذا يهرب من غرفتك أنت بالذات ؟..

....

* * *

ـ ٢ ـ

قلت وأنا أعابث قداحتي :

ـ إن قصتك يا د. (محمد) تحمل روائح مألوفة لي .. هذا اللقاء لا يمكن أن يكون لقاء زميلين .. وإنني لأشم روائح د. (فاوست) بشكل أو بآخر ..

ثم نظرت له في حدة .. واستطردت :

ـ هل أنت واثق أن (داغر) هذا لم يكن الشيطان ؟.. وأنه لم يعرض عليك بيع روحك مقابل المجد أو الحكمة أو الثراء ؟!!

قاطعني (شكري) في عصبية هاتفا :

ـ هأنتذا تفسد القصة هذه المرة ..!

نظرت له في غلّ .. من العجيب أن كراهية عارمة ـ لا مبرر لها ـ قد تسللت إلى علاقتي بهذا الملتحي . مقت غريب لعينيه الوقحتين ـ وسيجارته التي يلوكها طيلة الوقت ـ قد ملأ روحي .. وبرغم أنه يكبرني بعشرين عامًا على الأقل إلا أن نفورنا قد وصل إلى درجة القتل ..!..

قال د. (محمد شاهين) في حياء :

ـ صبرًا د. (رفعت) .. صبرًا .. إنك لواجد الإجابة على علامات استفهامك بعد دقائق ..

ثم أنه تذكر شيئًا .. فصاح محنقًا :

ـ بالمناسبة .. قلت لي أننا نحكي القصص حسب ترتيب السن .. هذا غير صحيح وإلا لكان أولنا هو الأستاذ (شكري) !.. تذكرت ذلك الآن !

ماذا أقول لهذا الرجل ..؟

ـ د. (محمد) ..

ـ نعم ؟..

ـ هلا أكملت قصتك اللعينة هذه ؟!!

★ ★ ★

قال د. (محمد) مواصلًا حكايته وقد احمرت أذناه قليلًا :

حين انصرفت (آمال) بدأت أدرك أن هناك شيئًا ما ليس على ما يرام .. بالواقع لم يكن أى شيء على ما يرام ..

ركعت على ركبتى أتتبع سرب النمل الطويل الكثيف كأنه رُسم بفرشاة سوداء على خشب الأرضية ..

ها هو ذا .. إنه يتعرج حول نفسه متجهًا إلى أحد شقوق الحائط الكثيرة .. الموضع الذى يفرّ منه كل هذا النمل ..

ما معنى هذا ..؟

هجرة نمل فى هذا الوقت من العام ..؟

وقط متوتر كأنما أوصلت ذيله بقابس الكهرباء ..

وبُرص يعدل عن رأيه فى الوقت الملائم لبدء البيات الشتوى ..

وكلب يعوى كالمسعور دون سبب واضح ..

كل هذا متزامن مع ذلك الشاب غريب الأطوار والمظهر .. الذى كان عندى من لحظات ..

إن هذا يعنى ......

وانتصب شعر رأسى (كان عندى شعر رأس فى تلك الآونة) واستحال جلدى كجلد الإوزة ..

لقد فهمت الحيوانات والحشرات ما لم أفهمه أنا ..

★ ★ ★

ومضيت أجول الغرفة فى قلق ..

كان (جمعة) قد هدأ قليلًا لكنه متكوّر كالجورب القديم فى ركن الفراش ويرمقنى فى توجس ..

كفّ عن الهلع أيها القط السخيف .. أرجوك ..

لم تعد لدىّ أعصاب تتحمل كل هذا ..

ولكن .. ما سر هذا الإسم الغريب الذى يحمله ؟.. إننى واسع الثقافة ـ كما تعلمون جميعًا ـ وكان من السهل أن أقول لنفسى أن (داغر) معناها (لصّ) وهى كلمة عربية فصحى لكننا نسينا معناها .. أما (السفير) فهو إسم ملىء بالدلالات .. خاصة إذا ما استبعدنا معناه القريب الدارج ..

أنا أعرف أن (لوسيفر) هو الاسم اللاتينى للشيطان .. وقد كان فى الأصل يعنى (الزهرة) حين تغدو (كوكب صباح) ثم اقترن بالشيطان فى الديانة المسيحية لأنه كناية عن الخيلاء التى تقود صاحبها للهلاك ..

فهل ثمة دلالة معينة لتشابه حروف (لوسيفر) و (السفير) ؟!..

إننى غزير العلم ـ كما تدركون جميعًا ـ وتفهمون أن الأدب العالمى هو مملكتى الخاصة .. وإن قصصًا مثل (فاوست) و (أحزان الشيطان) لا تغيب عن مخيلتى ..

لماذا لا نعرف شيئاً عن نشأة (داغر) ولا أسرته ولا عنوان
داره ..؟ لماذا يزور الجميع لكن أحدا لا يزوره ..؟
الوغد ..!.. لكم كان ناعما مهذبا مؤذيا كالأفعى !..
كانت الساعة تدنو من منتصف الليل وكان النمل قد أنهى هجرته
غير المفهومة .. والقط فى موضعه السابق .. ، حين سمعت دقا
متواصلا على الباب ..
فوثب قلبى إلى فمى ..
اتجهت للباب فى تؤدة وألصقت وجهى به .. وتساءلت :
ـ من هناك ؟
كان هذا هو صوتى المرتجف .. المتوجس .. الرفيع كصوت
سحلية مشنوقة ..
وهنا سمعت الصوت الذى سيظل يفعم كوابيسى :
ـ إنه أنا .. (داغر) .. إفتح يا (محمد) ..!

* * *

ـ دا .. دا .. (داغر) ؟.. مـ .. ماذا تريد ؟
قال فى سخرية :
ـ ليس لعب الشطرنج بالتأكيد .. نسيت مفاتيحى عندك ..
ـ لحظة ..!
ووثبت كالملسوع إلى حيث كان جالسا .. فوجدت المفاتيح التى
تحدث عنها .. غريب هذا !.. أنا واثق من أنه لم توجد مفاتيح طيلة
المدة التى تلت رحيله .. هذه المفاتيح برزت فجأة ..!
حملتها بين إصبعين ـ كالثعبان ـ واتجهت للباب .. هل أفتحه ؟..

لا أدرى .. لكنى ـ حتما ـ لن أتمكن من تمريرها أسفله ..
إذن لا مناص من فتح الباب ..
مددت يدى للقفل وأزحته فى توتر ..
ودخل (داغر) الغرفة ..
كان وجهه الوسيم صارم الملامح يتلألأ بين الظلال وهو يدلف
للحجرة وعيناه تلمعان ببريق غير مريح .. بريق لم ......
ميااااااووووو ..!
أنشب (جمعة) مخالبه فى الملاءة وقوس ظهره ثم وثب بقفزة
واحدة إلى ما تحت الفراش .. فقال (داغر) وهو يهز رأسه :
ـ إن هذا القط غريب الأطوار ..
والتقط المفاتيح ودسها فى جيبه .. وأردف :
ـ لماذا تحتفظ بهذا الوحش الشرس فى دارك ؟..
كنت أنا أتعوذ وأردد الأدعية كى يتركنى هذا (الشىء) سالما هذه
الليلة .. وإلى الوراء تراجعت ثلاث خطوات ..
ـ ماذا بك يا (محمد) ؟.. لا تبدو طبيعيا .. هل حدث
ما يضايقك ؟
كان يدنو منى فى تؤدة وعلى شفتيه إبتسامة معسولة ..
ـ إبتعد عنى ..!!
ـ لماذا ؟.. لماذا لا أدنو منك ؟
كنت أتراجع للخلف محاذرا أن أصطدم بالمكتب ..
ـ إبتعد أيها الشيطان !!
ضحك والتمعت عيناه وتبدت أسنانه البيضاء النضيدة :

ـ أنا شيطان ؟.. إنك ذكى يا صديقى ..!

ـ أنت ...

وهنا حدث الشيء .. الشيء الذى لم أتخيله فى أفظع كوابيسى ..

شممت رائحة غبار .. ثم هوى عرق خشبى عملاق من السقف .. وتطاير الغبار أكثر .. ثم بدأ الجحيم ..

أخشاب تتهاوى .. الأرض تميد تحت قدمى .. قرقعة .. صخب .. صوت تهشم .. ، (راغب) يحاول أن يقول شيئا ثم يسقط أرضا .. عواء القط .. عواء الكلب .. رائحة عطن .. صراخ نسوة ..

ثم لا شيء ...

* * *

فى مستشفى (القصر العينى) صحوت لأجد نفسى ملفوفا فى الضمادات وعشرات الأصوات تردد أن الحمد لله .. وفهمت ما هنالك ..

لقد انهار طابقان من المنزل المتداعى الذى كنت أسكن فيه ولم يصب ـ بالطبع وكما هى العادة ـ سواى و (داغر) ..

(داغر) المنحوس المسكين الذى عاد ليأخذ مفاتيحه دقيقة واحدة .. دقيقة واحدة لكنها كانت كافية كى ينهار المنزل فوق رأسه ومن حسن حظه أنه لم يقض نحبه ..

(داغر) سليل الأرستقراطية الذى لعبت برأسه السياسة فانضم إلى إحدى المنظمات اليسارية المتطرفة .. وتنصلت منه أسرته .. تاركة إياه يمارس دورًا اختاره لنفسه فى توعية البؤساء من أمثالى بقسوة وضعهم الطبقى المتدنى .. توطئة لضمهم إلى المنظمة ..

(داغر) الذى تلقى جزاء حماسه المبالغ فيه فى صورة كسر فى الفخذ والذراع وارتجاج مخ لا بأس به ..

الواقع أننى ـ فى تلك اللحظة ـ لم أعد أمقت ذلك المعتوه إلى ذلك الحد .. ، طيلة حياتى كنت أتعاطف مع الفريق الخاسر ..

حاولت أن أكسب صداقته من جديد .. لكنه كان قد تعلم درسا لا بأس به ، لهذا أفلت منى وعاد للدراسة من جديد .. وإن كان قد فقد مغناطيسيته أو لم يعد يعبأ بها .. ، ثم إن (البوليس السياسى) استضافه بعض الوقت مما شفاه نهائيًا من التودد ..

* * *

وفى المستشفى زارتنى (آمال) وأمها .. وكانت سليمتين تماما ، وكانت الأم قد أعدت لى بعض الحمام والأرز "معمّر" كأفضل هدية تعرفها لمريض (ولم تكن مخطئة تماما فى هذا)

أخبرتنى فى تفاؤل أن البيت أمكن إعادة ترميمه- فلم يعودوا بلا مأوى .. وأقسمت أغلظ الأيمان أن آكل أمامهما فى فراشى .. ، فلم أكذب خبرًا إلا أننى تجنبت سؤالها عن قطى وعن العزيز (جمعة) الذى كان شريك حياتى لفترة وجيزة .. ثم ولّى بعيدًا ككل ما هو رائع ..

ـ قطك بخير يا سى (محمد) ..

قالتها (آمال) فى نعومة .. مما جعل وجهى يتهلل طربا غير مصدق لما تقول .. ، أردفت مبتسمة :

ـ إن الحيوانات تشعر بالخطر قبلنا .. لهذا نجا بعمره فى تلك الليلة ..

شرد ذهنى وأنا ألوك الأرز إلى أحداث الأمسية .. هروب النمل وتوتر القط وذعر الكلب ، كانت تشم الخطر وتتحفز ضده ..

لكنى ـ كما هو واضح ـ أسأت فهم رسالتها وحسبت زائرى المقتحم نوعًا من الـ .....

إن مشاكلى لم تنته .. بل ـ بالأحرى ـ بدأت ..

لكنى أملك هدفًا .. وأعرف كيف أحقق هذا الهدف ، لا أذكر كم من عظماء التاريخ قد انهارت غرفهم فوق رءوسهم .. لكنى واثق من أنهم كثيرون .. ، وعما قريب سيفخر كل معارفى أنهم عرفونى .. وأنهم أحضروا لى الأرز والحمام حين كنت مريضًا جائعًا محطمًا ..!

سيكون الغد حافلًا .. ، وفيه كل شىء ممكن ..

أما اليوم .. فلأنم ملء جفونى ..

* * *

القصة الثالثة

حشرة الشيطان ..!

يحكيها : د. (رفعت)

- ١ -

كانت الساعة هى الثانية بعد منتصف الليل ..

لقد هدأت الأمطار المصطدمة بزجاج النافذة .. لكن العواصف مستمرة ..

وكنا جالسين نتحدث عن قصة د. (محمد) ..

قال (عادل) فى تهكم وهو ينهض ليريح ساقيه المتصلبتين :

- مرة أخرى تُخدع يا د. (محمد) وتعطى صبغة غير مادية لأمور مادية تمامًا .. هل تذكر قصتك مع آكل لحوم البشر ؟..

- إن ما حدث كان خديعة .. لكن رعبه كان حقيقيًا ..

قالها (شكرى) وهو يدون بعض الأفكار فى (أجندة) صغيرة .. ثم أنه نظر لى متسائلًا :

- والآن .. قصتك يا د. (رفعت) ..

نهضت واضعًا يدى فى جيبى .. وتفكرت حينًا .. ثم غمغمت :

- لا أدرى حقًا .. إن لدىّ عشرات القصص .. لكنها جميعًا طويلة ولن تترك مجالًا لراو آخر ..

ثم تذكرت شيئًا .. (يوسف) .. وحشرة الـ (أنثروفاجا) .. و .... كيف نسيت هذه القصة ؟.. كيف ..؟..

رفعت رأسى فى تؤدة .. وقلت :

- حسن .. هناك قصة قصيرة نوعًا ولربما شوقتكم .. لكن عدونى إذا شعرتم بالملل أن تخبرونى بذلك .. لا أحب أن أكون سمجًا أو ثقيلًا ..

- غريب أن تقول أنت بالذات هذا !!

كانت هذه العبارة بالطبع صادرة من خصمى الطبيعى (شكرى) .. لكنى تجاهلته وبدأت أروى قصتى للإناس المحترمين الآخرين ..

★ ★ ★

قلت لهم :

إن أشد ما يثير رعبى لهو الجهل بالخطر .. ، وفى كل قصصى أردد عبارتى الخالدة : (لم أكن أعرف ذلك .. لأنى كنت ساذجًا .. ساذجًا) .. ، تخيلوا لحظة دخول (ذات الرداء الأحمر) لجدتها التى لا تعرف أنها ذئب متنكر .. كلنا نعرف ذلك لكنها لا تعرف .. حتى لنكاد نصرخ : إهربى .. إهربى !.. لكنها - بالطبعَ - لا تسمعنا ..

(جوناثان هاركر) يزور قصر (دراكيولا) وهو الوحيد الذى لا يعرف من هو (دراكيولا) .. ، رائحة الكبريت انبعثت من (كاترين) فى القبو المظلم لكنى لم أربط بين ذلك وبين مصاصى الدماء ..

وفجأة تلتمع الحقيقة كضوء شهاب ..

ويدرك بطل القصة - بعد فوات الأوان - أنه فى مأزق حقيقى ..

عندئذ تولد ذروة القصة ..

★ ★ ★

كنت أدخر هذه القصة لأحكيها لقرائى .. لكن لما كانت أقصر من اللازم فإننى سأحكيها لكم الآن فى حلقة الرعب الوليدة هذه ..

كان ذلك فى عام ١٩٦٤ ..

قابلته فى الطريق العام فى مكان ما من شارع (شريف) ..
هل كنت رائحا أم غاديا ؟.. مكتئبا أم متفائلا ؟.. أصلع الرأس أم غزير الشعر ؟.. لا أذكر .. لكنى ـ فقط ـ أذكر أن رؤيته فتحت أمامى كونا من الذكريات ..
كان بدينا متلاحق الأنفاس يبلل العرق الغزير جبينه وموضع شاربه وتحت إبطيه ، وكان يرتدى قميصا صيفيا واسعا وبنطالا رثا .. الخلاصة أننى استشعرت أن أحواله على غير ما يرام ..
سددت أمامه الطريق بجسدى ورسمت أفظع ابتسامات الود على سحنتى .. فرفع نحوى عينين مذعورتين كأنما ناديته من كون آخر سحيق ..
وللحظة احتشد للعدائية ثم بدأ يتذكر ..
ـ (رفعت) .. (رفعت إسماعيل) ..!
ـ (يوسف) .. (يوسف شوقى) ..!
ـ يا لك من وغد قديم !
ـ ما زال لسانك يقطر لطفا ..!
هل تعرف هذه اللحظات الخالدة ؟..
لحظة لقاء صديقين قديمين حين يتهاوى سد الأعوام .. وحين تبدأ ـ تلقائيا ـ نغمة الحساب :
ـ ماذا فعلت أنا ؟ وماذا حققت أنت طيلة هذه الفترة ؟..
كم من الأحلام أثمرت شجراته وكم ذبل ؟.. أية أمراض لم تحسبها تصيب مثلك وأصابتك ؟.. ما أسماء أطفالك وهل هم حقا موجودون أم أنك لم تنجب بعد ؟.. هل ارتفعت خطوة أم هبطت خطوة أم أنك ما زلت كما أنت ؟..

وكالعادة تم الاتفاق على اللقاء ..
أعطانى وريقة صغيرة متسخة رسم فوقها ـ كيفما اتفق ـ كروكيا يبين مكان داره ، ودعانى إلى أن أزوره .. وليكن ذلك غدا إذا أمكن ..
وفى الموعد كنت هناك حاملا علبة صغيرة من الشيكولاته ورزمة من الذكريات ، أنا أفهم هذه النوعية من الأمسيات .. سيعرفنى على سيدة بدينة متشككة يقول لى إنها (المدام) وعلى مجموعة من الأطفال الوقحين الذين يضعون الميركيوركروم على ركبهم .. ولسوف يقدم لى زجاجة مياه غازية وقدح شاى ولربما بعض (الجاتوه) .. ثم نمضى الوقت فى كلام من نوع : هل رأيت فلانة ؟.. أين فلان ؟.. هل تذكر كذا .. وكذا ..؟.. كانت أياما رائعة ليتها تعود .. ، ثم نفترق على وعد بلقاء آخر .. وكالعادة لن يكون هناك لقاء آخر ..!..
هكذا تمضى الأمور دائما ..
ليس لى أن أتوقع أكثر ..
لأنه لن يكون هناك أكثر ..

* * *

كانت شقته تنم عن ذوق رائع ..
ودون جهد أدركت أنه غير متزوج ..
لا تستطيع زوجة أن تنسق شقتها بهذا الذوق الرائع ، دعك من أن الأطفال لن يدعوا حجرا فوق حجر ..

السؤال الوحيد هنا هو ذلك التناقض ما بين ثيابه الرثة وشقته الفاخرة المريحة للأعصاب .. ، كيف ذلك ؟.. وما سر عدم زواجه حتى تلك اللحظة ما دام غير مجنون مثلى ؟..

إن الإجابة آتية لا ريب فيها ..

أما الآن .. فلألعب دور صديق الصبا الودود ..

إن (يوسف) بحاجة إلىّ لسبب لا أدرى كنهه .. وعلىّ ألا أخيب ظنه ..

* * *

جلست فى غرفة الصالون على حين أخذ يصدر أصواتًا تدل على الترحيب والحماس ..

ثم إنه أحضر لى صينية عليها زجاجة مياه غازية ، وهو يثرثر عن أصدقاء الصبا ويسألنى عن أسماء عديدة .. وعن مهنتى .. وعن رحلاتى .. وعن كل شىء ..

ـ (رفعت) ..!.. إننى بحاجة إليك ..!

قالها ـ دون مناسبة ـ وكنت أتوقعها تمامًا .. ثم انفجر فى البكاء دون أى مبرر .. وأنا لا أحتمل هؤلاء السخفاء الذين يبكون فجأة .. فهم يجعلون الحياة غير محتملة ..

لكنى نهضت نحوه وقمت بواجبى تجاه صديق يبكى ..

قدمت له منديلى ثم عدت لمقعدى وشرعت أدخن وأرمقه فى دهشة ، تمخط فى المنديل ـ اللعين ! ـ ثم أعاده لى شاكرًا فطويته ودسسته فى جيبى مشمئزًا ..

ـ معذرة يا (رفعت) .. كل ما فى الأمر هو أننى ..

ـ نعم .. نعم .. تشعر بالوحدة .. هذا واضح ..

ـ كلا .. أنت لا تفهم ..

ثم جلس جوارى وحدق فى عينى بعينيه المذعورتين الغائصتين فى لحم وجهه البدين ـ كأنهما ثقبان فى كرة من الصلصال ـ وجفف العرق من على جبينه وبدأ يلهث ..

ـ إنهم خلفى ..!

ـ حقًا ..؟!

قرب وجهه من وجهى .. وهمس فى جزع :

ـ أقسم لك .. إن هى إلا دقائق .. ساعات .. أيام ويجدون مكانى ، وعندئذ ..

ـ وعندئذ :

ـ عندئذ سيتذكرون !

الآن اتضح لى الأمر .. أنا أعرف هذه السمات وأفهم هذه النغمة تمامًا ولقد سمعتها مرارًا من قبل .. ، حين دعانى (يوسف) إلى داره كنت أخاله يخفى لى ما هو أفضل من (البارانويا) (*) لكنه ـ للأسف ـ لم يكن يملك سواها .. وها هو ذا يردد نفس الكلمات التى نسمعها فى كل حالة عن (الآخرين) الذين يبحثون عنه ويراقبونه ..

يجب أن أتصرف .. ولكن فى سلاسة لأن مريض (البارانويا) مرهف الحس ويمكن أن يغدو عدوانيًا .. كما أنه فى أقرب فرصة سيعتبرنى (منهم) مما يجعل بقائى وحيدًا معه خطرًا لا بأس به ..

ـ يتذكرون ماذا ؟..

(*) جنون الاضطهاد .

ـ .. يتذكرون أننى السبب فى وجودهم ..!
ـ آه ..!.. فهمت ..!

ولعنت فى سرى أعباء الصداقات القديمة ..

لماذا ـ أنا بالذات ـ كلما قابلت صديقًا قديمًا وجدته قد غدا لصًا أو قاتلًا أو مجنونًا ؟!..

كان يجفف عرقه فى عصبية ويقول :

ـ فى كل ليلة يجافى النوم عينىّ وأدعوا الله ألا تكون هذه هى الليلة المختارة ..

هرشت عنقى فى تؤدة .. ثم قررت أن أجازف :

ـ (يوسف) .. لماذا لا تتحدث بالتفصيل ؟.. أنت تتصرف وكأننى على علم مطلق بكل ما تقول ..

ـ حقًا ؟

ـ إن كلماتك المبتورة تدعونى لإساءة الفهم كما تعلم ..

ـ وتظننى معتوهًا ؟

هززت رأسى محاولًا أن أنفى ذلك ثم وجدت ألا داعى لذلك . فهو منهك ومستسلم ولن يفيده بشىء أن أنكر ..

قال فى لوعة :

ـ لا ألومك كثيرًا .. أنا نفسى لا أملك الثقة الكافية كى أنفى ذلك أو أؤكده ، وأحيانًا ما أحسب كل ما مررت به كابوسًا ثقيلًا .. ولكن .. لماذا لا أحكى لك كل شىء بالتفصيل ؟.. هل أنت مرتبط بموعد آخر ؟

ـ بتاتًا ..

ـ إذن سأحكى لك كل شىء ..

★ ★ ★



الآن اتضح لى الأمر .. أنا أعرف هذه السمات وأفهم هذه النغمة تمامًا ..

سأحاول هنا أن أكون دقيقًا وأن أحكى كل ما قاله لى على مدى ثلاث ساعات ، بالطبع هناك تفاصيل منسية لكنها ـ أو هذا ما أرجوه ـ غير جوهرية في قصتنا ..

حدثت قصته فى عام ١٩٥٧ ..

في ذلك الوقت لم يكن (يوسف) فى (مصر) .. بل كان موفدًا إلى (ألمانيا) فى رحلة دراسية بغرض الحصول على درجة علمية فى الآفات الزراعية ومقاومتها .. تلك الدرجة التى ـ لأسباب ستعرفها فورًا ـ لم ينلها قط ..

كان الفتى منبهرًا تمامًا بكل شىء ..

وخاصة بأستاذه العجوز (أوبرمان) الذى أيقن تمام اليقين أنه يعرف كل شىء عن أى شىء يخطر لك ..

وكان فريق عمل مكونًا من فطاحل العلم مجتمعًا فى ذلك المعمل قرب (لايبزيش) عاكفًا على دراسة الاحتمالات التى لا تنتهى للتوازن البيئى .. ، والسيطرة البيولوجية على الآفات ..

حين ينخر بيتك بالفئران يمكنك دائمًا أن تبتاع سمًا .. لكن الحل الأدنى للطبيعة هو أن تبتاع قطًا ، وفى (مصر) يلتهم سمك المبروك قواقع البلهارسيا ـ أو هذا ما يحاولون عمله ـ ويلتهم سمك الـ (جامبوشيا) يرقات البعوض .. ، وهكذا تعالج الطبيعة نفسها بنفسها ..

لكن التوازن الطبيعى لعبة خطرة ..

ففى بعض ولايات الهند ـ على سبيل المثال ـ اعتادوا تربية الوطاويط لتلتهم الفئران .. لكنهم ـ بعد أعوام ـ ألفوا أنفسهم أمام وباء حقيقى من الوطاويط ..

كان العلماء الألمان يحاولون الحصول على أفضل شىء من القوانين البيولوجية دون أن يفسدوا اتزان الطبيعة ..

وهم يلعبون على ورقة رابحة إسمها (قانون الانتخاب الطبيعى) ..

لم تكن الهندسة الوراثية متقدمة فى ذلك الزمن السعيد ولا كل اللعب بجينات باكتريا (إ.كولاى) البريئة الذى نسمع عنه اليوم ..

لهذا كانوا يعتمدون على قانون الطفرات .. ، وعلى قابلية الصفة وليدة الطفرة على الاستمرار فى عدة أجيال تصير كلها بالتدريج حاملة لهذه الصفة ..

وعن طريق توليد عدة أجيال ترسخ الصفة وتتم تنقيتها وإضافة ما يلزم لها .. ، ولو أن مثل هذه التجارب تجرى على بشر لاحتاجت ملايين السنين حتى تظهر نتائجها ..

لكنهم كانوا يتعاملون مع نوع من الخنافس تشبه خنفسة (أبو عيد) المعروفة عندنا .. ومعها يمكنك إنتاج عدة أجيال فى شهور ..

كانت سلالة جديدة قد بدأت تنشأ لا علاقة لها بالأجداد .. وإنطلاقًا من ولع العلماء بالأسماء المعقدة والرطانة فقد أسموها بالإسم اللاتينى (إنتوفاجا) ، وهو ـ لمن يعنيه الأمر منكم ـ خليط من مقطعين لاتينيين معناهما (آكلة الحشرات) ..

نعم .. هذه الحشرة الوليدة تأكل الحشرات الأخرى التى قد تتطفل على المزروعات ، إن (الأنتوفاجا) أمينة على النبات .. شرسة مع أية حشرة لصة تسول لها نفسها الآثمة أن تسطو على الحقول ..

(الانتوفاجا) تتوالد كالأسماك ـ أو أسرع قليلًا ـ وحركتها سريعة وشهيتها جامحة .. ولونها أخضر تعجز الطيور عن تمييزه واصطيادها .. وفى حالة انفلات عيارها يمكن القضاء عليها بجرعة صغيرة من أى مركب فوسفورى عضوى .. جرعة لا تؤذى أى كائن أكبر منها ..

إن الـ (انتوفاجا) هى الحل السعيد لكل مشاكل الزراع ..

لكن الألمان حذرون ولا يدعون شيئًا للمصادفة ، وهم لن يعمموا الفكرة قبل تمحيص لا بأس به لعشر سنوات على الأقل لأنهم يعلمون أن الخلل البيولوجى يكون فى الغالب فادحًا عسير الإصلاح ..

والبحث العلمى هو نوع من اللحوم القاسية الألياف التى يجب أن تُطهى على نار هادئة لساعات طوال قبل أن تُقدم للآكلين ..

لكن (يوسف) كان عجولًا ..

وكان ـ كما قلنا آنفًا ـ منبهرًا بكل شىء ..

لهذا شرع فى غرفته الصغيرة الأنيقة يصغى لموسيقا (باخ) السماوية ويحلم بما يمكن أن تحققه هذه الحشرة فى (مصر) .. أن يأتى اليوم الذى تبيد فيه هذه الحشرة ديدان القطن بعبع زارعى القطن ومصاصة دماء الاقتصاد المصرى ..

أن تملأ هذه الحشرة حقولنا لاعبة دورها الهام بإخلاص وأمانة ودون كلل ..

إنه المجد ..

* * *

بمرور الوقت بدأ الأستاذ (أوبرمان) يلاحظ تبدلًا فى تركيز ومواظبة تلميذه .. أنت تعرف كيف يبدو الإنسان الذى استعبدته فكرة واحدة وكيف يتصرف ، ها هو ذا (يوسف) يكفّ عن البحث فى المراجع المطلوبة منه .. ولا يدون الملاحظات .. ويتأخر فى الاستيقاظ صباحًا ..

ثم أنه يحوم ـ أكثر من اللازم ـ حول معامل التحكم البيولوجى حيث تجرى تجارب (الإنتوفاجا) التى لم يكن له دور حيوى فيها ..

ولعدة مرات أنذره الأستاذ ..

ولعدة مرات توسّل له (يوسف) أن يعطيه دورًا أكبر فى تجارب هذه الحشرات ، لكن العالم الألمانى كان صارمًا لا يتزحزح ..

وبدأت الخطة تختمر فى ذهن (يوسف) ..

إنه الآن ـ بعد ستة شهور ـ على خبرة لا بأس بها بما يفعلون وهو قادر على البدء فى تجاربه الخاصة فى هذا الصدد .. ، فقط تلزمه بعض البويضات وعدة حضانات توفر الظروف البيئية المثلى للفقس ، على أن (الانتوفاجا) كانت حشرة قوية يمكنها ـ كالصرصور ـ أن تعيش فى ظروف قاسية جدًا سواء فى القيظ أو البرد .. ، ولم تكن ثمة حاجة للتحذلق المعملى ..

وهكـذا ..

طلب إجازة من هيئة البحوث ليعود فيها إلى (مصر) ..

ثم أنه تسلل للمعمل وبجفت صغير نقل بعض الشرائح الزجاجية التى تراصت فوقها البويضات إلى علبة صغيرة مغلقة ومبطنة بالقطن الطبى ..

وأعد حقائبه وودّع أساتذته مؤقتًا ..
لكنه ـ هو وحده ـ كان يعرف أنه لن يعود أبدًا ..

★ ★ ★

كانت شقة صغيرة في (بنها) هي داره حيث يعيش وحيدًا ، وهو في هذا يشبهني كثيرًا .. إلا أنه يختلف عني في أن فكرة ضخمة صاخبة كانت تنسيه هذه الوحدة ولا تدع له وقتًا لأي شيء سواها .. إن الأفكار المصطخبة في رأسه كانت تجعل شقته مزدحمة . وكان يثرثر مع الأحلام .. ويتشاجر مع مخاوفه .. ويضحك من دعابات لم يقبلها أحد ..

هل جُن ؟.. لا .. لا أظن ذلك .. لكن كل الظروف كانت مهيئة لذلك لو لم يجد ما يشغله فلا يترك له وقتًا للجنون ..

وكانت الحشرة هناك ..

الحشرات اللامعة خضراء اللون شديدة الأناقة التي غادرت بويضاتها لتوها كي تتعرف جدران معمله والأقفاص الزجاجية المضاءة التي أعدها لها .. وتلتهم الذباب والصراصير وديدان القزّ التي كان يأتيها بها ..

كان يعرفها حشرة حشرة حتى ليكاد يطلق عليها أسماء مميزة ..

ويقول (يوسف) ـ ولا أدري كيف ـ أنه بدأ يفهم أن لكل حشرة شخصية متميزة وشكلًا متفردًا يفرقها عن زميلاتها ..!

ومضت الأيام ..

وبدأت الإناث تنتفخ بالبيض ثم تتحرك في تؤدة وثقة كي تضعه

في صفوف متراصة على ألواح الزجاج الرقيقة المثبتة أفقيًا في أقفاصها ..

وهكذا ولدت السلالة (أ ـ ١) أولى سلالات هذه الحشرة في (مصر) ..

وما أن اشتد عود الصغار حتى نقلها إلى قفص زجاجي آخر وشرع يعرضها لمؤثرات بيئية قاسية .. ، في البدء عرضها لدرجات حرارة مرتفعة يومًا بعد يوم .. وكما هو متوقع هلك أكثرها لكن ما بقي منها كان قادرًا على تحمل درجات غير واردة أصلًا ..

ثم جاء الجيل التالي (أ ـ ٢) قادرًا على ذلك كله ..

وشرع في كل يوم يبتكر مشكلة جديدة أو عائقًا من نوع آخر وذلك حتى وصل إلى الجيل (أ ـ ٥٨) ..

التقط بالجفت واحدة من الحشرات وطفق يتأملها ..

كانت تختلف تمامًا عن الحشرة الأولى التي (استعارها) من معمل البحوث الألماني حتى كأنها نوع آخر مستقل تمامًا ..

كانت أضخم حجمًا .. ولونها يميل إلى الحمرة .. ومنظرها غير مريح على الإطلاق .. وكانت تئز بصوت رتيب مفزع ..

لكنها كانت (ابنته) .. وكان يحبها كما يجب أن يحب ابنته ..

مدّ يده في رفق أمامها ..

فتحركت في حذر ودنت من أنامله .. وأحس بها تتلمسها بفمها ..

ثم كانت العضة قاسية .. لكنه تقبلها في استخفاف بنفس الطريقة

التى تتقبل بها أنثى الذئب عضات جروها الحانية لأذنيها ..

ـ إنك قد صرتِ شرسة يا فتاة .. هيا إنزلى !

قالها وهو يمدّ يده ليلتقطها حيث وقفت فوق كف يده الأخرى ..

لكنه فوجئ أنها متشبثة .. متشبثة إلى حدّ أنه قاتل قتال الشهداء كى ينتزعها من لحمه .. وحين استطاع أخيرًا وجد خيطًا من الدم ينسال من بقعة حمراء صغيرة فى كفه ..

ـ إذن أنتِ تحتاجين إسمًا آخر ..

ووضع قطعة قطن على موضع النزف مفكرًا :

ـ (أنثروفاجا) .. آكلة الإنسان ..!.. نعم .. هو كذلك !.. هذا الإسم يلائمك تمامًا وأنتِ السبب فى ذلك ولا أحد سواك !

وهكـذا ..

مضت الأيام فى سلام ..

إلى أن حدثت الكارثة التى يتوقعها ويعرفها ويخشاها كل عالم تمضى بحوثه دون مشاكل .. ، لابد من مصيبة ما ..

وكانت هذه المصيبة فى حالتنا هى عربة رشّ المبيدات التى تجوب الشوارع فى وقت الغروب ، وكان معمل (يوسف) مفتوح النوافذ فى تلك الآونة طلبًا للتهوية .. وكان هو عاكفًا على تشريح إحدى حشراته تحت المجهر حين سمع صوت الموتور المألوف .. وإمتلأت الغرفة بضباب الـ (د. د. ت) طيب الرائحة شديد السُمّية حتى أن (يوسف) لم يعد قادرًا على رؤية كفيه .. كفيه اللذين راح يلوح بهما فى هستيريا محاولًا إزاحة الدخان صارخًا كالملسوع :

ـ توقفوا يا أولاد الـ (.....) ..!.. توقفوا ..!.. إنكم تقتلونهم !

كان يعرف تمامًا ما سيجده عند انقشاع الضباب لأن الأقفاص الزجاجية كانت كلها مفتوحة من أعلى ..

يا للكارثة !.. يا للخسارة ..!..

فى كل الأقفاص كانت (بناته) منقلبات على ظهورهن وقد لفظن أنفاسهن .. عشرات الأجيال .. مئات الحشرات .. إنه لم يتصوّر أن فى العالم كله مشهدًا بهذه القسوة والبشاعة .. كل المجهود المضنى الذى ضاع هباء ..

لم يعد يرى شيئًا لأنه كان يبكى ..

الدموع تشوه الموجودات .. وتسيل من أنفه فيحاول منعها بشهقات قصيرة متوالية ..

على الأرض تربّع ممسكًا برأسه ينشج ..

وفجـأة سمع الأزيز ..

وثب على قدميه كالملسوع إلى مصدر الصوت ..

ولدهشته وجد عددًا من الحشرات من سلالة (إ ـ ٥٨) .. عددًا لا يتجاوز العشرين .. وكانت حية .. واهنة ضعيفة لكنها حية ..

يجب إخراج هذه المخلوقات إلى الهواء الطلق ..

إن الخيط لم يفارق أنامله بعد .. ويمكنه أن يجذبه ويعيد لفه حول إصبعه ..

وفى حماس تخلص من الحشرات الميتة وبدأ يعدّ المكان لاحتضان هذه السلالة الناجية التى سرّه أن وجد بين أفرادها خمس إناث ..

وهنا نشعر بالقلق ..

ونود أن نصرخ فى (يوسف) ألا يفعل ..

لقد تحملت هذه الحشرات جرعة قاتلة من الـ (د. د. ت) ..

وهذا يعني أنها صارت منيعة تقريبًا .. وستورث هذه المناعة للأجيال التالية ..

لكن (يوسف) لا يعلم ولا يتوقع شرًا ..

وهذا هو بيت القصيد ..

★ ★ ★

- ٢ -

التمع ضوء البرق الفضي فاستدرنا في توتر نرمق ستائر النافذة وشعرنا بالقشعريرة ..

قالت مدام (ثريا) وقد بدأ جفناها يزدادان ثقلا :

- هل يرغب أحدكم فى النوم ؟

كان حديثها موجهًا لعدد محدود منا لأن رأس د. (محمد) كان قد تهاوى فوق صدره وتعالى صوت غطيطه ، وكذا ألقت (سهام) برأسها للوراء وفغرت فاها .. أما (عادل) فكان يرمقنى بعينين دمويتين يكاد الدم ينفجر منهما لولا غشاء الملتحمة الرقيق ..

إن قصتي - كما هو واضح - لم تلق حماسًا كبيرًا ..!

لكن ما عزاني كان هو د. (سامي) بجلسته المهتمة المتحفزة .. و (هويدا) التي انحنت للأمام كأنما انكسر ظهرها نصفين وقد أراحت ذقنها على قبضتها ..

دعك من (شكرى) العدوانى المتحمس المستعد فى أية لحظة لضربى ..

قال (شكرى) وهو يأخذ سيجارة من علبتى :

- إنها قصة لا بأس بها حتى الآن .. وهى تلعب على الوتر الإغريقى القديم : الإنسان الذاهب فى إصرار أحمق إلى نهايته ..

- إنه الافتتان .. الانبهار .. الفضول الذى جعلنى أصرّ على استكمال تجربة مصاص الدماء .. وأقبل تشريح مومياء الفرعون ..

ابتسم (شكرى) فى غموض .. وغمغم :

ـ الواقع يا د. (رفعت) أن اهتمامنا واحد .. ويمكن تعاوننا أن يفضى إلى نتائج لا بأس بها .. فلديك ذكرياتك الرهيبة ولدى الموهبة ..

ـ أشكرك .. لكنى أملك بعض الموهبة أنا الآخر ..

قال د. (سامى) وهو يتمطى :

ـ أكمل يا د. (رفعت) قبل أن تفلت خيوط القصة منا .. إن النعاس يهاجمنا وهو كفيل بأن يفسد كل شىء ..

★ ★ ★

أين قد توقفت ؟..

آه !.. عند السلالة التى نجت من المبيد الحشرى ومحاولة (يوسف) أن يبدأ كل شىء من جديد ..

لقد استغرق الأمر عدة شهور ..

إلا أنه ـ وبعد جهد مضن ـ استطاع أن يتملى جليًا السلالة (إ ـ ٦٠) تلهو فى قفصها الزجاجى ..

لقد تغيرت هذه الحشرات كثيرًا جدًا ..

لونها أدنى إلى لون الدم ، وحجمها يقارب حجم الجرادة ، وشراستها كسمكة قرش .. ، صحيح أن تغير لونها أفقدها مزية هامة هى (المماهاة) أو بمعنى آخر قدرتها على الاختفاء وسط خضرة المزروعات بعيدًا عن عيون أعدائها الطبيعيين : الطيور ..

لكنه بدأ يعتقد أن الطيور تحتاج لشجاعة غير عادية كى تفكر فى اشتهاء هذه المخلوقات البشعة ..

★ ★ ★

كان هذا هو يوم الجمعة ..

وبعد سهرة طويلة مع أوراقه وملاحظاته دخل فراشه لينام ..

كم نام بالضبط ..؟.. لا يذكر ..

لكنه واثق أن صوت أذان الفجر كان يتسرب عبر مصراع النافذة حين سمع ذلك الأزيز المألوف ..

أدرك (أنهم) فى مكان ما من الغرفة معه ..

وحين مدّ يده لمفتاح الكهرباء .. ، وحين فتح عينيه فى دهشة ، وحين نهض من الفراش باحثًا بقدمه عن خُفّه ..

كان يتوقع كل شىء سوى ما رآه ..

لم تكن هناك واحدة منها ولا اثنتان .. بل عشرات ..

عشرات الحيوانات الحمراء فوق الدولاب وعلى السجادة وفوق الستائر وتحت الفراش .. وكانت تموج بالحياة والصخب وتتحرك بثقة هنا وهناك ، وتتزاوج .. وتلهو .. وتستكشف المكان ..

فرك عينيه متوقعًا أن يصحو من الكابوس غارقًا فى العرق ..

لكن كل شىء ظل كما هو ..

كيف غادرت هذه المسوخ أقفاصها ؟.. وكيف وصلت هنا ؟..

لقد صار الأمر خطيرًا ..

هرع إلى الغرفة التى اتخذها معملًا وأضاء النور ليجد أن السلالة (إ ـ ٦٠) هى التى غادرت قفصها الزجاجى .. ، الغريب فى الموضوع أنها استطاعت بشكل ما أن تزحزح الغطاء الثقيل وتتسلل من تحته مغادرة سجنها .. والأغرب هو أنها عرفت طريق غرفته مسترشدة بالرائحة أو الإدراك فائق الحسّ لا يدرى بالضبط ..

لقد تفوقت هذه الحشرات على نفسها ..!..

وكأى مصرى صميم يجد جيشًا من الحشرات على باب دولاب غرفته ؛ خلع (يوسف) خفه بغية ضرب أكبر عدد من هذه الحشرات .. ، وهوى به على مجموعة منها ..

لكن ما حدث كان عجيبًا ..

وكأنما يضرب صفحة الماء .. إتسعت دوامة من الحشرات بلمح البصر تاركة قلب الدائرة فارغًا حيث تهوى ضربته ، فما أن رفع يده حتى التأمت حشود هذه الكائنات فى ثقة وعادت تمارس حياتها ..!..

جرى كالمجنون إلى زجاجة المبيد الحشرى التى يضعها تحت الفراش وبدأ ينفث السائل السام على هذه الحشود .. ، لكن النتيجة كانت سلبية .. وكأنما أسعد الحشرات أن تستحم قليلًا بهذه المادة عطرة الرائحة ..

المشكلة الأدهى كانت هى أن هرس هذه الكائنات مستحيل ، فلو لم تراوغ .. تبقى حقيقة أن طبقتها (الكيتينية) المغلفة لها قاسية جدًا ..

وكأنك تحاول هرس بارجة حربية ..

وهكذا لم يبق أمامه سوى أن يجلب دلوًا وبعصا طويلة يسقط ما تيسر من هذه الحشرات فى الدلو توطئة لإعادتها للقفص الزجاجى ..

عملية مملة مرهقة إقتضت أربع ساعات من الجهد المتواصل .. إلا أنها انتهت أخيرًا ، وأمكنه أن يعود للنوم فى غرفة خالية من الأزيز ..



خلع (يوسف) خفه بغية ضرب أكبر عدد من هذه الحشرات .. وهوى به على مجموعة منها ..

هذا ـ بالطبع ـ بعد أن تأكد من إحكام غلق القفص ..

وكانت هذه هى المرة الأولى التى يلمح فيها بصيص الخطر وسط ظلمات غفلته ..

* * *

لكنه نسى (عبد العزيز) ..

و (عبد العزيز) ـ إذا لم تكن تعلم ـ هو الخادم العجوز الطيب الذى يبتاع له حاجيات السوق وينظف الشقة يوميًا ثم يغادره فى الظهيرة ويتقاضى خمس جنيهات فى الشهر ..

ومن الإهانة لذكائكم أن أقول أن (عبد العزيز) كان ممنوعا من دخول المعمل رغم علمه بما يدور فيه .. ، كان (يوسف) ينظفه بنفسه إلا أنه ـ فى الصباح التالى ـ وجد المعمل فى حال يرثى لها من أثر أحداث الأمس .. حال لا يمكن تقويمها ..

لهذا طلب من العجوز أن يعالج الأمر بحنكة .. ، وخرج إلى الشرفة يدخن ويرمق العالم بعينين لا تريان ..

ثمة شىء يحدثه أن الأمور لا تمضى كما يجب ..

إن هذه الحشرة توشك أن تكون منيعة ..

وسلوكها الجماعى يثير حيرته إلى حد غير عادى ..

إنها ذكية .. نشطة .. لا تتصرف بذعر الحشرات التقليدى ..

فما معنى هذا ؟..

يوجد حل واحد ألا وهو التخلص من السلالة (أ ـ ٩٠) .. ربما عن طريق دفنها ، وليحاول أن يبدأ من جديد باحثًا عن أجداد أغبى وأضعف لها ..

نعم .. هو كذلك ....

و ......

دخل من الشرفة قاصدًا المعمل مناديًا الخادم العجوز :

ـ (عبد العزيز) !.. ألم تنته بعد ؟..

لم يرد الرجل ، وهذه هى مشكلة الشيوخ .. كلهم مصابون بتصلب عظام الأذن وصمم الشيخوخة ..

ـ (عبد العزيز) !.. أين أنت ؟

وفى تؤدة دخل من باب المعمل مواصلًا النداء :

ـ (عبده) !.. هل توفاك الله ؟

لم يدر أبدًا إلى أى حد كان صادقًا ..

هناك ـ جوار المنضدة ـ وجد أسوأ كوابيسه وقد تحقق ..

لن أصف المشهد .. لكنكم تستطيعون أن تتخيلوه ..

وتستطيعون أن تتخيلوا وجه (يوسف) فى اللحظة التى أدرك فيها أى مأزق قد جلبه لنفسه ..

وأية كارثة ..

* * *

ـ ٣ ـ

الحيـرة ...!

الحيرة القاسية نحو ما ينبغى عمله .. وكيف الخروج من ورطته هذه ..

ليس من المستحب أن يجد البوليس هذا المشهد لأن محاولة تفسيره ستكون عسيرة بعض الشىء ..

وناظرًا إلى مسرح الأحداث بدأ يفهم كنه ما حدث .. ، والمفزع هنا أن الحشرات جذبت كم العجوز وأسقطته أرضا .. فالعجوز لم يكسر قفصًا زجاجيًا عن طريق الخطأ كما قد يتبادر لذهنكم ..

نعم .. لن أحكى التفاصيل لأن هناك سيدات بيننا لكنى سأكتفى بالقول أن (يوسف) أصابه الهلع .. الهلع البرى الوحشى .. فلم يدر ما يجب وما لا يجب ..

كل ما فكر فيه هو إبادة هذه الكوابيس مع أثر جريمتها ..

ـ سامحنى .. فلن يضيرك هذا ..

قالها موجهًا كلامه للعجوز الذى كان يعرف أنه لن يسمعه ..

وهرع إلى المطبخ .. ها هى ذى زجاجة الكيروسين وعلبة الثقاب ..

وبدأ يسكب السائل على الحشرات وعلى الجدران .. على كل شىء فى المعمل ..

ثم أسقط موقد (بنزن) على الأرض ، وأشعل الثقاب و ...

فرّ من الشقة سريعًا بعد ما أغلق بابها ..

وفى بئر السلم دخن سيجارة بيد مرتجفة وقلب واجف .. ثم عاود الصعود ليجد ـ كما توقع ـ الدخان خارجًا من أسفل الباب ..

وخرج الجيران ليروا ما هنالك وقد شموا رائحة الدخان ، فوجدوه يحاول فتح باب الشقة فى هستيريا (وكان ذعره حقيقة لا تمثيلًا) ، ثم إن بعضهم استدعى رجال الإطفاء الذين اقتحموا الباب ..

لقد أتت النيران على كل شىء ..

وفى المعمل تناثرت ذرات رماد لم يعرف أحد كنهها ، وكيف لهم أن يخمنوا أن هذه الأجسام السوداء هى ما تبقى من السلالة (ـ ٦٠) ؟..

وحتى تقرير المعمل الجنائى لم ير فى القصة كلها سوى خادم عجوز بائس أوقع موقد (بنزن) مشتعلًا على الأرض ولم يدرك ما حدث إلا بعد فوات الأوان ..

نموذج آخر للإهمال المؤسف فى حياتنا ..

أما (يوسف) فقد ترك كل شىء خلفه وجاء يعيش فى (القاهرة) ، ولا داعى للقول إنه صار حطامًا بشريًا ..

سيظل شبح العجوز يطارده .. ومشهد الحشرة البشع .. وكل ما تلا ذلك من ملابسات درامية ..

لكن الله تعالى رحيم وسيغفر له أكذوبته وطموحه المدمّر ما دام قد أراح البشرية من هذا الكابوس الشنيع ..

دعا الله كذلك أن يغفر له جريمة حرق حشرات حية وهو يعلم أنه لا يحرق بالنار إلا خالقها ، لكنه لم يكن يعرف أية وسيلة أخرى لتدمير هذه الكارثة البيئية التى أوجدها ..

كان بحاجة لهدية الأيام التى لا تقدر بثمن .. النسيان ..

* * *

وفى شقته الجديدة بدأ يمارس حياة رتيبة ..
وأخذ يتكسب عيشه عن طريق العمل كمحرر علمى لاحدى الصحف ، يرسل لها أخبارًا من نوع (دواء جديد للسرطان) و (إنتهت مشكلة الصلع) ..
إلى آخر هذه السخافات التى لا يمكن الإمساك بها أبدًا ..
أما هوايته فى ساعات فراغه فكانت هى تحقيق طموح قديم : أن يصير بدينًا كالفيل ! ، وقد بذل كل مرتخص وغال من أجل هذا الطموح .. حتى برز كرشه وصار كرة من الزبد غزيرة العرق متلاحقة الأنفاس ..
وهكـذا ..
كانت الأيام تمضى .. وجذوة الذكرى تخبو .. وسمنته تزداد ومقالاته تتوالى ..
إلى أن ظهرت الحشرة ..

* * *

جالسًا فى غرفة مكتبه سمع الأزيز أولًا ..
الأزيز الذى جعل شعر رأسه ينتصب وأمعاءه تتقلص ..
شىء واحد فى الكون يمكنه إصدار هذا الأزيز وهو لن ينساه أبدًا ..
نهض فى توجس إلى الشرفة الموصدة وأرهف السمع .. ثم انحنى على ركبتيه ودقق البصر ..
ها هى ذى ..

كانت منهكة خائرة القوى لكنها هى .. هى .. !
ولقد تمكنت من الزحف تحت (شيش) الباب داخلة إليه .. ، ولكن ليفحصها أولًا ..
مد يده - فى تقزز - إلى الحشرة الوحيدة .. ووضعها على مكتبه وتأملها فى توجس .. إنه لن يخطئ هذا الشكل وهذا اللون .. إنها واحدة من سلالة (إ - ٦٠) المشئومة ..
لقد بحثت عنه ووجدته ..
مهتدية بحاسة لا تخيب فعلت .. ، مهتدية برائحته فعلت .. ، مختبئة فى ثيابه فعلت ..
المهم أنها قطعت هذه المسافة الشاسعة كقط أليف يقطع البلدان فى أثر صاحبه .. ، لم تنسه بعد كل هذه الشهور ..
وقد وجدته ..
فهل هى أول الغيث ؟!

* * *

حبس الحشرة كى يتأكد من أنها لن ترسل إشارة بيولوجية ما لصديقاتها ، ثم عاد إلى غرفة نومه يرتجف ..
لم يتصور قط أن هناك حشرات ناجية لكن هذا حدث ، ومن المؤكد أنه نساها فى مكان لم تمسه النيران من الشقة .. أو ...
وهنا أدرك فى رعب أن هناك احتمالًا آخر لكن يجب الاستيثاق منه أولًا .. ، لهذا هرع إلى الحشرة وأمسكها بأنامله ثم قرب عود ثقاب ملتهبًا من جسدها ..
ولدهشته لم يحدث لها شىء .. وظلت تحاول التملص ..

لقد كانت هنالك طفرة .. وهذه الطفرة جعلت بعض الحشرات ذات طبقة كيتينية عازلة للحرارة ولا تشتعل ، وبالتالى استطاعت بعض الحشرات أن تنجو من الحريق الكبير ..

ولكن هذا يعنى ..

نعم يعنى ذلك ..

يعنى أنه لو عادت الـ (أنثروفاجا) لزيارته فلن يستطيع القضاء عليها أبدًا !!

* * *

قلت لـ (يوسف) وأنا أضع ساقًا فوق ساق وأتأمل الغرفة :

ـ إذن .. هذه الحشرات لعنة أبدية ..

مسح قطرات العرق من على جبينه وهتف :

ـ أظن ذلك .. ولو أنها تملك الذكاء الذى أومن أنها تملكه فهى ولابد آتية للانتقام منى كما ينتقم الابن من أبيه الذى حاول قتله

ـ وكيف تمضى وقتك الآن ؟

ـ فى الترقب ...!

تأملته فى شرود محاولًا أن أقرر ما إذا كان مجنونًا أم عاقلًا .. لم أحاول أن أتبين ما إذا كان كاذبًا أم صادقًا لأنه بالتأكيد صادق فى رعبه ..

إن هذا الزميل فى ورطة .. لكن من أدراه أن هناك حشرات أخرى ؟

لماذا لا تكون هذه الحشرة التى رآها هى الوحيدة ؟

ـ لأن ثلاث حشرات زارتنى بعدها فى مدة أسبوع !

ـ آه !.. فهمت ..

ثم نظرت لساعتى .. ، إنه يحتاجنى طبعًا لكن هذه مشكلته لا مشكلتى ..

فلن أقضى حياتى جواره بانتظار أن يحدث شىء ما .. ، لهذا نهضت غير عابئ بعينيه المناشدتين ..

ـ إسمع يا (يوسف) .. أنا ...

ـ إبق معى ساعة واحدة !

ـ ولكن ...

ـ ربع ساعة آخر ...

أنا أفهمه تمامًا .. وهو يرتجف هلعًا من الوحدة والعودة لمخاوفه لكن ماذا بيدى أن أفعل ؟.. إن لدىّ مشاغلى وأعباء حياتى ..

ـ (يوسف) .. إن هذا لن يغير شيئًا .. كل ما يمكنك عمله هو سد كل فتحات دارك فى إحكام .. وقضاء أطول وقت ممكن بين الناس ..

احمرّ وجهه حنقًا .. ونهض صائحًا ملوحًا بكفيه :

ـ كذا أنت !.. مثلهم جميعًا !.. كلهم يبدون علامات الفهم ثم يهرعون للحاق بفيلم السهرة حامدين الله على أنهم ليسوا فى وضعى !!

ثم أرغى وأزبد .. وشعرت به يدفعنى للباب دفعًا ..

ـ إذهب !.. إذهب لتحصى أرباح اليوم وتغازل فتاتك وتلتهم أفخر الطعام .. ثم تنام شاعرًا بأنك فعلت ما عليك تجاه معتوه مثلى !.. هيا .. اذهب !..



فميّزت عشرات .. بل مئات الحشرات متراصة على الأرض وعلى الجدار ..

وقبل أن أفهم ما حدث انغلق الباب خلفى كصفعة انهالت فوق قفاى ، فلم أتمالك نفسى من الشعور بالإهانة ..

★ ★ ★

شارد الذهن مطرقًا للأرض أدرت وجهى لأنصرف ..

وهنا استرعت انتباهى مساحة كبيرة من اللون الأحمر على درج السلم الرخامى والجدار ..

دققت بصرى أكثر على ضوء المصباح الكهربى الخافت فوق الباب ، فميّزت عشرات .. بل مئات الحشرات متراصة على الأرض وعلى الجدار ..

حشرات ضخمة حمراء اللون لا توحى بالثقة أبدًا ..

حشرات أعرف وصفها .. وأعرف جيدًا معنى وجودها هنا ..

لقد جاءت ـ كما توقع (يوسف) ـ ووقفت على الباب تنتظر ..

كانت تتحرك حركات دوامية منتظمة عصبية بعض الشىء ، كأنها تشعر بالتململ بانتظار شىء ما ..

وكان منها من تعبث هنا وهناك .. ومنها من تستكشف ..

لكنها جميعًا كانت تنتظر ..

★ ★ ★

يجب أن أعبر هذه البحيرة من الأجساد المقززة طالبًا نجدة ..

لكن ما إن حركت قدمى حتى وجدت أنه من المستحيل أن أطئ الأرض لأن هذه الأشياء تكدست فى الموضع الذى ستهبط فيه قدمى .. من الواضح أنها تتأهب لجذب الحذاء أو شىء مماثل ..

لا مخرج من هذه الناحية ..

تراجعت للخلف فى تؤدة وبطء محاذرًا أن تبدر منى حركة عصبية ..

وقرعت الجرس فى هستيريا ..

مرتين .. ثلاثًا .. ولا استجابة ..

بحيرة الحشرات تخضع لنوع من المد .. ولسانان أحمران يسيران ببطء نحوى ..

إفتح أيها الأحمق ..!.. إفتح ..!

خمس حشرات تزحف من أعلى باتجاه يدى الضاغطة على الجرس ..

ـ (يوسف) !.. إفتح !.. أرجوك !

بعد ثوان كالدهر سمعت صوته المتشكك من خلف الباب :

ـ ماذا تريد ؟.. قلت لك أن ترحل للجحيم !

هذا هو ما سيحدث لو لم تفتح !

لسان أحمر ثالث يلحق برفاقه .. هل أنا أحلم أم أن هذه الحشرات تهاجم بأسلوب (الميمنة ـ القلب ـ الميسرة) العسكرى العتيد ؟!

ـ (يوسف) !.. إنهم هنا ..!

ـ هم ؟..

ـ إفتح الباب لترى !

سمعت ـ حامدًا الله ـ صوت المزلاج ينفتح ، ثم لمحت وجهه الذى اسودّ ما أن رأى المشهد .. ، ومن فمه خرجت شهقة ..

وقبل أن يغلق الباب لا شعوريًا .. بادرت بحشر جسدى فى الفتحة الضيقة ثم جذبته خلفى .. وأغلقت الباب بإحكام ..

ـ إذن لقد ضعنا !..

أخذ يرددها فى هستيريا وقد تفككت صواميل جهازه العصبى تمامًا .. الدموع فى عينيه واللعاب يتساقط من شدقه ..

ـ ضعنا .. ضعنا !

ـ أشكرك على دقة معلوماتك ..

ـ لا تحاول يا صديقى .. لا تحاول !

عليك اللعنة !.. لست فى شوق للمزيد من التوتر .. إننى بحاجة للحظة تعقل واحدة منك كى أعرف ..

ـ هل هناك تليفون هنا ؟

هز رأسه يمينًا ويسارًا أن لا ..

رفعت قدمى وشرعت أهوى بكعب الحذاء على الأرض محاولًا بدقات متوالية أن أنبه الجيران .. ، وبعد عشر دقائق نظر لى بوجهه المتراخى المستسلم متسائلًا عما أفعله بحق السماء .

ـ يا له من سؤال !.. أحاول لفت إنتباه الجيران ..

ـ لا تحاول .. لا أحد بالطابق السفلى .. كلهم فى المصيف !

ـ إذن قضى علينا ؟

ـ بالتـأكيد ..

لكنى لم أستسلم .. أنا لا أخاف الموت لأنه كأس سنرشفها جميعًا ، لكنى أمقت أن أموت على صورة طعام فى أحشاء هذه الحشرات القذرة وهذا من حقى فيما أظن ..

شرعت أجوب الغرفة مفكرًا ..

هذه الحشرات لا تتأثر بالنار ولا المبيدات الحشرية ولا يمكن سحقها بالحذاء .. إذن كيف ؟... لا بد من وسيلة ما ..

آه !.. الماء .. قوة الماء الجارفة التى لا تقاومها الحشرات ..

هرعت للحمام .. فوجدت خرطومًا مطاطيًا طويلًا لحسن الحظ .. فقمت بتثبيته إلى فوهة الصنبور وفتحت هذا الأخير ..

وقبل أن ينهى الماء رحلته الطويلة بالداخل ركضت إلى باب الشقة وفتحته بحذر وصحت فى (يوسف) :

ـ لا تتحرك .. إبق خلفى ..

واعتصرت طرف الخرطوم بين أناملى لأزيد قوة اندفاع الماء .. ثم صوبته نحو البقع الحمراء ..

وانطلق الماء يكتسح الأجساد البشعة التى لم تمت لكنها فقدت تماسك صفوفها ، وبدأ طريق يولد ما بين هذه الصفوف ..

كنت أضغط على أسنانى محكمًا التصويب ومن حين لآخر أسقط بعض الحشود من على الجدران ..

ببطء نتقدم .. ببطء شديد حذر ..

و ...

فجأة توقف اندفاع المياه من فوهة الخرطوم ..

لقد إنقطعت المياه فى أتعس لحظة ممكنة !

* * *

نظرت نحوه فى حيرة .. إلا أنه فارقنى وهرع لداخل الشقة .. ثم سمعت صوته يصرخ مفسرًا لى :

ـ لا شىء هنالك .. إن ضغط المياه أدى لانفصال الخرطوم من فوهة الصنبور ..

ـ إذن أحسن تثبيته بيدك .. ولا تدعه ينفصل ..

وعاد الماء يندفع وعدت أحاول تطهير المدخل إلى أن وصلت لدرجة معقولة من الفراغ تسمح لنا بالمرور دون خسائر ..

ـ هلم يا (يوسف) .. اترك الصنبور وتعال ..

فلم يرد ..

رفعت صوتى أكثر وأنا أرش الحائط طلبًا للاتقان :

ـ (يوسف) .. أسرع قبل أن تلتئم صفوفهم ..!

فلم أتلق ـ مرة أخرى ـ ردًا ..

ركضت إلى الداخل بعد أن تركت الخرطوم على الدرج ..

ودخلت الحمام فوجدت .....

لقد فات الأوان .. فات ..

لم أدر ـ ولم يدر هو ـ أن الحشرات يمكنها الخروج من البالوعة كما تفعل الصراصير .. ، ولابد أنه كان غارقًا فى محاولة تثبيت الصنبور فلم يدرك أن الحشرات قد هاجمت شقته على جبهتين كأى جيش منظم يحاصر مدينة ..

من خلفه زحفت .. و .....

لقد انتهى (يوسف) على يد أبنائه وبناته .. ، السلالة (إ ـ ٦٠) التى تكاثرت وتمكنت من العثور عليه وجعله يدفع الثمن ..

إنتهى (يوسف) وجاء دورى ..

جريت ـ كما تتوقعون يا رفاق ـ إلى الباب والتقطت الخرطوم مواصلًا عملية الإخلاء ..

من الغريب هنا أن الحشرات لم تبد متحمسة لمهاجمتى كأنها قد زهدت القتل ، وكأنها جاءت فى مهمة محددة وهذه المهمة قد انتهت ..

وشرعت أثب درجات السلم ..

إلى الشارع ..

إلى سيارتى ..

★ ★ ★

كانت ليلة كابوسية ..

مئات الرجال يعملون فى صبر ..

علماء حشرات .. خبراء بيئة .. رجال شرطة .. مهندسون زراعيون ..

وكانت الحقيقة المروعة التى لم يهضموها قط هى أن هذه الحشرات منيعة تمامًا ..

ولم يجدوا وسيلة سوى جمعها يدويًا أو بالرفش وتكديسها فى صناديق كما هى ، واضطروا إلى تفكيك شبكة مجارى البناية كى يتأكدوا من أنهم لم ينسوا ذكرًا وأنثى فى مكان ما ..

أما عن الصناديق فقد دفنوها تحت عمق سحيق وأهالوا فوقها أطنانًا من التربة ..

وابتكر العلماء مركبًا سامًا لا بأس به طهروا به المنطقة وشبكة الصرف تحت الأرض .. وبالطبع شقة (يوسف) كلها ..

لكن التعتيم الإعلامى كان كاملًا فلم يدر واحد من العامة بما حدث ..

لقد عشت أهوالًا عديدة بعد هذا الحادث ، وأزعم ـ دون ادعاء كبير ـ أنه لم يعد يزور كوابيسى وأننى تذكرت تفاصيله الأليمة هذه الليلة فقط استجابة لطلبكم ..

إلا أننى مازلت أجفل كلما سمعت صوت أزيز فى مكان ما من شقتى .. وهو انعكاس شرطى له ما يبرره فى الواقع ..

★ ★ ★

إن من يبحث فى مراجع علم الحشرات بدقة اليوم سيجد صورة تمثل حشرة ضخمة حمراء اللون لا توحى بالثقة ..

وسيعرف أنها قد انقرضت تمامًا إلا من عينات محفوظة فى بعض كليات العلوم بمصر .. ، وسيعرف أن إسمها اللاتينى هو (أنثروفاجا) ومعناه (آكلة البشر) ..

أما الإسم الدارج لها ـ بعيدًا عن الرطانة ـ فسهل تذكره ..

لقد أسماها العلماء المصريون بإسم ..

حشرة الشيطان .....

★ ★ ★

القصة الرابعة

الزائرة ..

يحكيها : د. (سامى) وحرمه

ـ ١ ـ

أنهيت قصتى وتثاءبت .. فقد جاء دورى لأنعس بينما يحكى الآخرون قصصهم لجمهور وهمى ...

قال (شكرى) فى جفاء وهو يتمطى :

ـ لا بأس بها .. لكنها بشعة أكثر منها مرعبة !

ـ وما الفارق ...؟

ـ كالفارق بين سماع زئير الأسد ورؤية الأسد نفسه ..! ، فى الحالة الأولى ينتابك الرعب .. أما فى الحالة الثانية فتصدم .. ، وقصة الرعب الجيدة تفسح مجالًا للخيال لكنها لا تصدمك .. ، لا مجال فى قصة الرعب الجيدة لوصف العيون المقلوعة والجثث النخرة و ... و ... ، لكنها توحى لك بذلك ..

قلت فى غيظ مقاومًا رغبتى فى اقتلاع عينيه :

ـ تنسى أن هذا حدث لى فعلًا ولست مسئولًا عن (الإحكام الأدبى) للأحداث .. ، لا يمكنك أن تقول أن (الثورة الفرنسية) ركيكة أو مفتعلة مثلًا ..!

ـ على كل حال .. أعتقد أن أفضل قصص الليلة هى قصة د. (محمد شاهين) حتى الآن .. فهى تحمل جوّ التوتر والنذير الغامض وتحشد توترك .. ثم تفاجئك بأنك كنت مخدوعًا ..

وهرش رأسه فى إنهاك مستطردًا :

ـ ما دمت لم أحك قصتى بعد فإن قصصكم لديها فرصة .. والآن دعونا نسمع ـ أو بالأحرى نستمع إلى ـ قصة د. (سامى) ...

تبادل د. (سامى) وزوجته النظرات ثم قال فى رقة :

- حسن .. أعتقد أن مدام (سهام) قد أفسدت قصة المرآة التى كنت أدخرها لكم .. ، لكن عندى لحسن الحظ قصة لا بأس بها . ويمكننا أن نتبادل سردها ..

قالت مدام (ثريا) وهى تدعك عينيها الحمراوين :

- إحك أنت .. وسأصحح لك التفاصيل ..

* * *

قال د. (سامى) :

- أن الخوف من المجهول - ومن الأشياء التى تحدث خلف ظهورنا - لخوف عتيد .. ، وفى حالتى كان كابوسى الخاص يتعلق بالأشياء المفزعة التى تحدث فى دارنا بعد أن نتركها ونسافر .. . لو أن عينًا سحرية وصفت لنا ما حدث فى المكان الخالى .. فأى شىء سنراه ؟ .. كانت هذه الفكرة تؤرق صباى وشبابى وواضح أنها ستؤرق شيخوختى ..

* * *

هى هواية التصوير الفوتوغرافى التى بدأت كل هذا الفزع ..

أرى وجوهكم تتساءل عن الكيفية التى يسبب بها التصوير الفوتوغرافى رعبًا لأحد .. ، انتظروا دقائق وستفهمون كل شىء ..

كنت - فى تلك الأيام من عام ١٩٦١ - فخورًا بآلة التصوير العاكسة التى ابتعتها من (الدانمارك) ، وقضيت أوقاتًا لا بأس بها أجرب عدساتها وأصوّر عشرات التأثيرات الخاصة ..

ثم بدأت ألتقط صورًا لنباتات الظل فى دارى ..

كنت بحاجة ماسة إلى تعلم الصبر مع كائن ممل بطىء التغير كالنبات ، خاصة حين تحاول الإحساس بنموه بشكل ملموس ..

وتفتق ذهنى عن وسيلة مشابهة لأسلوب (تسريع الزمن) المستعمل بكثرة فى تصوير النباتات والزهور . فى هذا الأسلوب يتم التقاط صورة للحدث المراد متابعته على فترات متباعدة .. صورة كل ثلاث ساعات .. أو صورة كل يوم .. ، المهم أن عرض هذه الكادرات يجرى بسرعة أربعة وعشرين كادرًا فى الثانية (حسب أكثر آلات العرض شيوعًا) وهكذا يُولد مشهد لم يُوجد قط ..

إنك بهذا الأسلوب ترى غصون اللبلاب تزحف كالأفاعى متسلقة الجدران ، والورود تفغر فاها كطيور وليدة ، والأغصان ترقص مترنحة تجاه النور .. ، إنك تحصل على حياة محمومة أسرع إيقاعًا من حياتنا وأكثر إبهارًا ..

لكنى لم أكن أملك جهاز عرض سينمائى ..

كل ما كان فى جعبتى هو (فانوس سحرى) متهالك ، يمكنه أن يعرض الشرائح الشفافة على الحائط ، وعن طريق سرعة تغيير الشريحة المعروضة أستطيع أن أخلق انطباعًا زائفًا بالحركة ، وهى بالطبع ليست حركة ناعمة كالتى نراها فى السينما بل هى مجرد انتقالات عصبية خاطفة كأنها تجارب (لوميير) الأولى ..

لكنى كنت منبهرًا بالنتيجة ..

وكانت نتائج تصوير شروق الشمس باهرة .. تخيل معى الأفق المظلم الذى يبدأ فى التلوّن .. ثم يثب قرص الشمس فى ثقة وسط اللون الأحمر كى يبعث الدفء والنور من حوله ..

تخيل ما يمكن أن يحدث لو صورت النباتات بنفس الأسلوب ..

لكنها تجربة قاسية :

ولسوف أحتاج إلى صورة فى العاشرة صباحًا وصورة فى العاشرة مساء كل يوم لمدة أسبوعين حتى أحصل على نتيجة ما .. ، وأنا رجل مشغول .. مشغول ..

ليس لدىّ ترف تكريس ليلى - إن لم يكن نهارى أيضًا - لهذا السخف حتى ولو كنت شغوفًا به .. ، خاصة و (ثريا) مصابة بفقدان ذاكرة مزمن يصعب معه أن تتذكر شيئًا كهذا ..

لهذا ابتكرت جهازًا رائعًا ..

هذا الجهاز هو نوع من الدائرة الكهربية التى تنغلق كلما لامست عقارب الساعة العاشرة صباحًا أو مساء .. ، ويتكون من منبه وعدة أسلاك وبطارية .. وقد أوصلتها بضاغط الكاميرا الذى يفتح الحاجب ويبدأ (الفلاش) فى ذات اللحظة ..

أما الكاميرا فوضعتها فوق حامل وأحكمت ضبط شباك رؤيتها على لقطة متوسطة لنباتاتى الجميلة ، وكان موضع هذا الحامل هو فى الصالة .. هنا .. قرب هذا المقعد .. هل ترون المكان جيدًا ؟..

إن هذا الموضع يظهر أصص النباتات بوضوح ، ويظهر كذلك مشهدًا خلفيًا عامًا للصالة كلها كما لا بد أنكم لاحظتم ..

وما أن أحكمت إجراءاتى واطمأننت على كل شيء ..

حتى بدأت التنفيذ ..

ومن هنا تبدأ قصتنا ..

★ ★ ★

كانت التجربة مسلية ..

وقد اعتدت و (ثريا) سماع الـ (كليك) صباحًا ومساء ، فكانت تبتسم فى إعجاب وأبتسم أنا فى تواضع متظاهرًا أننى لست ذلك العبقري الذى تظنه ..

إن آلية اختراعى تعمل بكفاءة تامة ..

كنا - كما تعلمون جميعًا - كثيرى الخروج لزيارة المعارف لأننا نحب الجو الاجتماعى أو - كما يقول د. (رفعت) - نعشق ثانى أوكسيد الكربون ونكره الأوكسجين ..

لكننا كنا مطمئنين فى كل مرة إلى أن الكاميرا تؤدى عملها كخير ما ينبغى ..

كان عدّاد الكاميرا يدنو من الثلاثين لقطة ، وكان الشغف يملؤنى لرؤية النتيجة .. صحيح أنها لن تكون فى إتقان آلات التصوير السينمائى لكنها - على الأقل - ستخدم الغرض ..

★ ★ ★

كنت أتردد على عيادتى بعد الظهر حيث أقضى ساعتين أو ثلاثًا مع مشاكل مرضاى ..

وعلى النقيض من عيادات الأطباء النفسيين المزدحمة التى يستعملون فيها العقاقير ؛ فإن عيادة (المحلل النفسى) تعتمد على مريضين أو ثلاثة يأتى الواحد منهم ليرقد على أريكة مريحة ويثرثر عن نفسه ، على حين يجلس المحلل عند رأس المريض واضعًا ساقًا على ساق يدوّن ما يقال فى (بلوك نوت) صغير أو - إذا كان متحذلقًا - يجلس جوار بكرة جهاز التسجيل الدائرة ويكتفى بالأسئلة ..

إن أساليب التحليل النفسى معقدة وتحتاج لصبر لا ينتهى .. ، كما أنها تحتاج لطبيب لاه عن العادة غير متعطش للكسب .. بل للمعرفة ..

ومع حديث المريض المسترسل .. أو حكايته لأحلامه .. أو تداعى المعانى غير المقصود .. أو تفسيره لصور مشوهة يريها الطبيب له .. أو تحت تأثير التنويم المغناطيسى ؛ يبدأ المحلل يجد خيوطًا تقوده إلى جذور مريضه النفسية وتتجمع أجزاء الصورة ..

هو ـ بلا جدال ـ فن معقد لكنى أحبه ..

وكانت الحالة الجديدة التى تؤرقنى هى (سوزان) .. ، فتاة فى الثلاثين من عمرها غير متزوجة وعلى قدر لا بأس به من الثراء والجمال .. ، كل شىء فيها كان أسود .. ثيابها .. شعرها .. عينيها ، وكانت تسدل خصلات شعرها على جانب وجهها الأيمن إمعانًا فى الغرابة ..

هذه الفتاة ـ قلت لنفسى ـ ممن يعتقدن أن غموض المرأة (موضة) لها جاذبيتها ، وغالبًا ما يتضح أن هذا الغموض يخفى تفاهة وسطحية لا مثيل لهما .. إن من قرأوا (النظارة السوداء) لـ (إحسان عبد القدوس) أو (أبو الهول الذى لا سر لـه) لـ (أوسكار وايلد) سيعرفون على الفور ما أعنيه ..

المشكلة هى أن هؤلاء الفتيات ـ مدعيات الغموض ـ يكنّ دائمًا فريسة الشعور بالاضطهاد وأنه لا يوجد إنسان مرهف الحسّ بما يكفى كى يفهمهن .. ، وفى الغالب هى لم تأت للمحلل النفسى

إلا لأنها (تراهن) يفعلن ذلك فى السينما ، ولأن المحلل النفسى جزء من هالة الغموض التى تريد أن تخلقها حول ذاتها ..

قلت هذا لنفسى فى جزع ..

وبدأت أتأهب لساعة من الملل والرغبة فى طردها ..

لكنها ـ إذ رقدت على الشيزلونج ـ بدأت تتكلم .. ، وكان ما قالته لى غريبًا إلى حدّ لا يصدّق ..

إسمها (سوزان) كما قلت لكم .. واسمحوا لى ألا أذكر باقى اسمها ولا مهنتها لأن الطبيب النفسى لا يحق له أبدًا أن يفشى أسرار مرضاه مقرونة بما يدل عليهم ..

ومشكلتها كما قالت لى هى أنها ..

ـ .. بلا مفر .. لا أجد مفرًا ولا مهربًا منها ..

فكان طبيعيًا أن أسألها :

ـ ومن هى ؟

ـ (لميس) ..!

ـ هل هى عدوة قديمة لك أو شىء من هذا القبيل ..؟

عابثت خصلات شعرها فى توتر .. وهمست :

ـ بل أسوأ .. إنها أنا !..

ـ وهى تعيش داخلك ؟

ـ بالفعل .. وتجبر جسدى على إطاعتها ..

وأنا يا رفاق طبيب نفسى عتيد ، شاب شعرى فى أروقة اللاوعى ودهاليز (الأنا العليا) وسراديب الـ (هى) .. ، وأزعم أننى رأيت



لكنها ـ إذا رقدت على الشيزلونج ـ بدأت تتكلم .. ، وكان ما قالته لى غريبًا إلى حدّ لا يصدق ..

وسمعت كل شىء .. من العجوز الذى تدعوه البعوضة لتحرير العالم إلى الفتاة التى تخشى أن تخنقها البراغيث فى فراشها ..

لهذا تبينت على الفور نغمة (الفصام) الشهيرة .. ، وهى موجودة ـ بدرجات متفاوتة ـ فى كل منا بدءًا بتناقضات المزاج البسيطة وانتهاءً بالصورة القصوى المريعة التى رسمها (ر . ل . ستيفنسون) فى رائعته (د. جيكل ومستر هايد) ..

إلا أننى تركت الفتاة تتكلم ..

ـ أحيانًا أشعر بها تتحرك فى أعماقى وتقول لى : أنا هنا أيتها الحمقاء !.. أنا حية أعرف خواطرك وأحلامك . وهذا الجسد لا يسع سوى واحدة منا .. ولن تكونى أنت هذه الواحدة . إننى أقوى شخصية منك وأذكى .. إننى أحصل على ما أريد ولا أرتجف خلف الأبواب الموصدة عاجزة عن فتحها .. . لهذا لا فرصة لك أيتها الحمقاء .. لا فرصة على الإطلاق ..

توقفت عن الكتابة فى مفكرتى .. وسألتها :

ـ وهل نجحتْ فى الاستيلاء على جسدك تمامًا ؟

لهثتْ وأرجعتْ رأسها للوراء وبللت شفتيها بلسانها :

ـ ليس بعد .. لكننى ـ حين يجنّ الليل ـ وأغرق فى النعاس أعرف أنها استحوذت علىّ ، أعرف أننى أغادر الفراش وأتسلل مغادرة الدار لأعيش حياتها الغامضة التى لا أدرى شيئًا عنها ، إلا أننى ـ فى الصباح ـ أجد آثارًا كثيرة .. تذاكر قطار .. بطاقات .. خدوشًا فى معصمى كأننى كنت أجتاز دغلًا متشابك الأغصان .. جروحًا فى أصابعى .. إلخ ..

ـ ولم يحدث قط أن عدتِ للسيطرة أثناء ممارستها لحياتها ..؟

اتسعت عينها اليسرى ـ غير المغطاة ـ رعبًا .. وهمست :

ـ مرات قليلة .. وكنت أجد نفسى فى أماكن لا أعرفها .. أماكن غامضة مرعبة ، لهذا كنت أفرّ من ذاتي فورًا وأترك (لميس) تتصرف ، لأنها ما دامت وصلت لهذه الأماكن فهى تعرف كيف تخرج منها ..

قلت بصوت رزين محاولًا تهدئة أعصابها :

ـ أماكن مرعبة .. هلا أوضحت أكثر ..؟

نظرت لى حيث جلستُ عند رأسها أدوّن ما تقول .. وقالت :

ـ لا أدرى .. مقابر وسط الشواهد الكئيبة .. زقاق خلفى مظلم تعوى فيه القطط السوداء فى شراسة .. قفص الأسد فى حديقة الحيوان وهو يرمقنى فى تكاسل متسائلًا عما إذا كنت أصلح للعشاء .. محرقة جثث فى دولة أجنبية .. عشرات الأماكن ..

مرة أخرى توقفتُ عن الكتابة :

ـ تعنين أنها ساقت جسدك لقفص الأسد ؟

ـ بالضبط ..

ـ لكننا متفقان على أنه لا يمكن لإنسان أن يدخل هناك ، فضلًا عن أن يخرج .. ألا يعنى هذا أن الأمر مجرد كابوس منك ؟

صاحت فى ضيق كأنما أذهلها غبائى :

ـ نعم .. أنت لا تعرف (لميس) ..

ـ لكن .. هذا يعنى أنها ..

ـ نعم !.. هى شيطانة وأكثر .. بل هى تجيد اختراق الحوائط والسفر عبر المحيطات ، كل هذا مستعملة جسدى الفانى الضعيف ..!

....

حتى بعد كلماتها الأخيرة لم أشعر بلحظة دهشة ..

إن القصة دائمًا هكذا .. ، ولقد سمعت أسوأ منها بكثير .. وتفسير العامة الجاهز لهذه القصص هو مس الجن .. ، أنا مؤمن بالجن طبعًا لكننا نعلق على شماعته كثيرًا من الاضطرابات النفسية التى يمكن علاجها ، ومن الممكن أن تكون هذه الحالة واحدة منها ..

أخذت أسألها عن بيئتها ونشأتها ..

فشعرتُ بخيبة أمل ..

إن (سوزان) شخصية إيجابية مثقفة بكل ما فى الكلمة من معان .. ونشأتها لا غبار عليها ، فلن أجد عقدًا ولا إحباطات فى حياتها من أى نوع .. ، وحتى شماعة (الإحباط العاطفى) التى نعلق عليها المشاكل النفسية لا وجود لها هنا ..

لأن الفتاة مخطوبة لشاب مهذب وسيم أعرفه جيدًا ، وأعرف أن فتيات كثيرات كن يتمنين قطع ذراعهن من أجل الفوز به ..

إذن ما هى المشكلة ؟

ماهى جذور (الفصام) فى شخصية كهذه ..؟

إن المرض العقلى ليس عدوى وليس كارثة قدرية مفاجئة .. بل إن له أرضية ممهدة فى شخصية نسميها ـ نحن أطباء النفس ـ باسم (شخصية ما قبل مرضية) ـ ثم تأتى الصدمة .. عندئذ يُولد المرض

النفسي الذى قد يأخذ صورة اختلال طفيف يعرفه المريض ويفهمه ويكافح للخلاص منه واسمه (عُصاب) .. أو اختلال خطير لا يعرفه المريض ولا يفهمه بل ويكافح كى يقنع الآخرين به .. وهذا الاختلال الأخير نسميه (ذُهان) ..

وهى تسمية مهذبة لكلمة (جنون) (*) ..

كانت (سوزان) شخصية قويمة تمامًا .. وكان الحديث معها لمدة ساعتين كافيًا لإقناعى بسخف انطباعى الأول عن ادعائها الغموض ..

وتدريجيًا بدأت أدرك أنها ستكون حالة مُرهقة تتحدى ذكائى وخبراتى فى عالم النفس .. لكننى ـ بالطبع ـ لم أصدق حرفًا مما تقول ..

ـ لهذا أزمعت أن أحضر معى دليلًا ..

قالتها وهى تعبث فى حقيبتها باحثة عن شىء ما .. فسألتها :

ـ دليلًا على ماذا ؟

ـ على أننى كنت هناك ..

وأردفت مفسرة وهى تطبق يدها على ما كانت تبحث عنه :

ـ أمس استعدت سيطرتى على نفسى .. فوجدت أننى واقفة فى قاعة مظلمة تملؤها نباتات الظلّ .. ولم يكن هناك أحد .. كنت أدرك أننى سأتلاشى بعد ثوان لهذا أمسكت بأول شىء وجدته أمامى ودسسته فى جيبى لأتأكد فى الصباح من أننى لم أكن واهمة ..

(*) معذرة على التفاصيل لكن د. (سامى) يحب دائمًا أن يتخذ دور المعلم . وعلينا أن نتحمّله فى شجاعة !

ـ منطق لا بأس به .. وما هو هذا الشىء ..؟

فتحت كفها لترينى ذلك الشىء ، فتجمد الدم فى عروقى ..

لم أستطع أن أصارحها أننى ـ فى هذه اللحظة ـ أدركت تمامًا إلى أى حد هى صادقة ..

لا يوجد سوى منديل واحد فى (مصر) كلها يشبه هذا الذى تمسكه ..

منديل سماوى اللون تلوث بعصير المانجو وبه أثرا حرق من سيجار مشتعل .. وعليه الحرفان الأولان من اسمى ..

لأنه منديلى الذى نسيته فى قاعة الجلوس أمس ..!

* * *

- ٢ -

توقف د. (سامى) عن الكلام وأخذ يتأمل وجوهنا فى استمتاع إذ أثار شغفنا إلى حد كبير ..

قال (شكرى) وهو يرشف القهوة التى أعدتها له مدام (ثريا) كى يحتفظ بحيويته وتحفزه المزعجين :

ـ لا بأس بتاتًا .. لقد نجحت فى بعث التوتر فى عروقنا .. وأعتقد أن النعاس قد فرّ من عيون الكثيرين ..

قلت أنا وقد بدأ وعيى يتلاشى حتى أننى كنت أجد صعوبة فى ترتيب أفكارى :

ـ هناك من تحدث عن تصوير النباتات .. من هو ؟.. وماذا حدث فى قصته هذه ؟!..

ابتسم الجالسون فى رقة .. وتبادلوا النظرات ، ثم قال د. (محمد) وهو يربت على خدى :

ـ صح النوم !.. إن تصوير النباتات هو قصتنا الحالية هذه !

ـ حقًا ؟.. و ... و ... ماذا حدث فيها ؟

ـ لم يحدث شىء بعد ..

ـ إذن لماذا تحدث .. ما اسمه بالضبط ؟.. د. (سامى) .. نعم .. هو كذلك .. لماذا تحدث عنها ؟

ـ هذا ما سنعرفه حالًا ..

قال د. (سامى) فى لهجة معتذرة :

ـ لم يكن هذا إطنابًا يا د . (رفعت) .. صدقنى .. فقط إصغ لباقى القصة ..

ـ حسن .. حسن .. قل ما عندك ...

* * *

تناسيت هذا الحادث الغريب ..

ولم أشعر الفتاة بما يعتمل فى ذهنى من خواطر سوداء ..

على أننى كنت أترقب اليوم الموعود فى شغف حقيقى ..

لقد انتهى الفيلم الذى ظللت ألتقطه فى صبر طيلة أسبوعين وثلاثة أيام وأمكننى أن أعيد تعبئته وإرساله للتحميض ..

وبعد ثلاثة أيام وصلنى مظروف به ستة وثلاثين كادرًا شفافًا ، فقمت بترتيبها ـ بحسب رقم اللقطة ـ فى منصة العرض الدائرية للفانوس السحرى ..

وناديت (ثريا) التى أعدت لى كوبًا من الليمون إمعانًا فى الاستمتاع والتلذذ بالحدث الذى جعله خيالانا ديناصوريًا ..

أطفأت النور وأضأت كشاف الجهاز فارتمت الصورة على الشاشة تظهر أكبر عدد من نباتاتنا الحبيبة ..

وبدأت أتأمل الكادرات ببطء فى البداية على أن أزيد سرعة التحريك فيما بعد حين أتأكد من جودتها جميعًا ..

وكانت (ثريا) أول من لاحظ ..

فى الكادر السابع كان ثمة شىء غير مألوف ..

ووجمنا ونحن نرمق ما نراه ، عاجزين عن تفسيره ..

ـ هو جزء من ساعد وأصابع يد ..

قالتها (ثريا) ووثبت إلى الشاشة لتشير بإصبعها شارحة وجهة نظرها ، تلك الوجهة المعقولة إلى حدّ كبير .. ، فمن طرف الكادر الأيمن كان هناك شكل مبهم ـ لقربه من العدسة ـ لكنه يتشكل فى صورة ساعد ويد مفتوحة الأصابع .. إن هذا الغريب !

ـ هل هى يدك ؟

ـ أنت تعرف أن هذا الركن محرّم علينا منذ بدأت مشروعك ..

ـ إذن يد من هى ؟..

ـ يد شخص مرّ أمام الكاميرا فى العاشرة من مساء اليوم الثالث ..

ـ وهل هذا طبيعى ؟.. لا يوجد سوانا فى هذا البيت ..

ـ استمر فى العرض وسنرى ..

وبدأت الكادرات تتوالى ..

وفجأة ـ عند الكادر السابع عشر ـ لمحنا شيئًا آخر ..

كان هناك كتف .. نعم كتف يدخل من إطار الكادر الأيسر .. وكالعادة بلا تفسير ..

وتوالت الكادرات ..

الكادر الحادى والعشرون كن يظهر شيئًا قريبًا من ظهر فتاة ترتدى ثيابًا سوداء تمامًا ، أما الكادر الثلاثون فكان ظلامًا كله كأن هناك من كان يقف أمام العدسة لحظتها ..

ما معنى هذا ؟

معناه أن هناك من يتسلل إلى دارنا ..

وهذا التسلل حدث فى العاشرة مساء من اليوم الثالث واليوم الثامن واليوم العاشر والخامس عشر .. من بدء التجربة ..

ـ لقد خرجنا فى اليوم الثالث لزيارة آل (محفوظ) ..

ـ بل آل (منصور) ..

ـ وخرجنا فى الأيام التالية جميعًا ..

قالت (ثريا) وهى تتأمل إحدى الصور :

ـ معنى هذا أن هناك من كان ينتهز فرصة مغادرتنا للدار كى يدخلها ..

شردت نظرتى وأنا أقلب فى ذهنى الاحتمالات :

ـ ولكن .. هل سُرق شىء من الفللا ؟.. لا أظن ..

ـ لم يُسرق شىء .. أنا واثقة ..

عدت أفكر بصوت عال وأنا أرشف الليمون :

ـ إذن لماذا يتسلل أحد للفللا ؟.. ثم تخيلى أنك لصة ـ لا سمح الله ـ دخلت إلي دار غاب أهلها ، ثم .. هوب !.. يسطع فلاش الكاميرا وتعرفين أنهم أعدوا طريقة ما لالتقاط الصور أوتوماتيكيًا .. عندئذ ماذا تفعلين ؟

ـ بالطبع أحاول تدمير الكاميرا أو الفيلم لأن عليه دليل تسللى ، أو أفرّ من الدار ولا أعود لها أبدًا ..

ـ لكن المتسلل لم يفعل هذا .. فما سرّ ذلك ؟..

لم تجد إجابة ..

وكذا أنا .....

ظللنا صامتين نرمق الكادر شاردى الذهن .. ، ثمة خطر يتهددنا لكننا لا نعرف كنهه .. شرخ فى جدار أمننا يتسع ببطء ..

وبالطبع نسينا كل شىء عن تجربة النباتات !

★ ★ ★

لم يكن منطقيًا أن نبلغ الشرطة ..

إذ لم يُسرق شىء من الفللا على الأقل فى الوقت الحالى ..

المنطقى هو أن نتأكد من غلق الأبواب والنوافذ بإحكام عند مغادرتنا لها ، والمنطقى كذلك أن نعيد التجربة مع شىء من سعة الأفق ..

أما المنطقى أكثر من كل هذا هو أن نخرج ثم نعود للفللا فى (كبسة) مفاجئة فى العاشرة مساء ..

ولقد نفذنا كل هذا بدقة تمامًا ..

ونقلنا الكاميرا إلى ركن قصىّ من الصالة يتيح لها التقاط صورة شاملة لكل ما يحدث ، وبالتالى لن تحوى الصور القادمة أجزاء من فتيات غامضات بل الفتيات أنفسهن ..!

وفى اليوم الأول تعمدنا الخروج محدثين أكبر ضجة ممكنة ليعرف من يراقبنا أننا خرجنا ..

ولم نعد فى العاشرة مساء لنترك فرصة أكبر للمتسلل ..

أما فى الأيام التالية فكنا نعود فى أوقات مفاجئة ، لكننا ـ كما هو واضح ـ لم نلق ما يريب ..

وبعد خمسة أيام أخذت الفيلم لتحميضه ، على صور هذه المرة وليس شرائح فانوس سحرى .. وذلك لنسهل تداولها ودراستها ..

فماذا ـ تتوقعون ـ كانت النتيجة ؟..

نعم .. هو كذلك .. لم يظهر المتسلل سوى فى الصورة الأولى .. ، أى أنه لم يأت سوى مرة واحدة أو هو توقع عودتنا فى المرات التالية فلم يأت ..

كانت الصورة مألوفة لىّ .. مألوفة تمامًا ..

الغريب أنها كانت تقف فى مواجهة الكاميرا فى ثقة مزعجة ، كانت تعرف أن صورتها تلتقط .. وتريد أن تظهر استهانتها بنا ..

الثوب الأسود والشعر المنسدل يغطى نصف الوجه والوقفة الشامخة ..

ألم تعرفوها بعد ؟.. هل نسيتم قصة المنديل ..؟

إنها (سوزان) طبعًا ..

أم هل أقول .. (لميس) ؟!

★ ★ ★

فى هذه المرة قمت بإبلاغ الشرطة ..

وكان ضابط البوليس هو (عادل) ، ولعل هذا هو سرّ صداقتنا .. وأنتم لم تنسوا بعد استشارته لى فى قضية المرآة المسحورة إياها ..

وكان (عادل) نشيطًا .. بل جم النشاط ..

خطته انقسمت إلى جزءين : الجزء الأول هو العثور على الفتاة ومواجهتها بصورتها .. وهذا سهل لأن لدىّ اسمها وعنوانها ورقم تليفونها ..

الجزء الثانى : هو تدبير كمين لها فى ليلة تغادر فيها الفلا ..

لكن الجزء الأول كان سلبيًا .. لأن الفتاة تعمدت إعطائى معلومات مزيفة عن بيئتها ، وحتى خطيبها الذى كنت أعرفه لم يكن خطيبها ولم يرها فى حياته .. هكذا أخبرنى فى النادى ..

كانت تكذب بإحكام لتملك هى زمام المبادأة .. فلا ترانى إلا حين تريد هى .....

أما الجزء الثانى فلم يسفر عن شىء بعد أسبوعين من مراقبة الفلا .. ولولا الصورة لاعتبرنى (عادل) مخرفًا ..

لقد ذابت الفتاة .. تبخرت ...

ـ لكنها لم تؤذك ولم تسرقك !

قالها (عادل) مواسيًا .. فصرخت فى حنق :

ـ وهل هذا سبب كاف كى أشعر بالسعادة إذ تدخل (الفلا) كل ليلة لتفتشها ركنًا ركنًا ؟!

ـ ثم .. كيف تدخل ؟

فى حنق نظرت له .. وتنهدت هامسًا :

ـ أنت لا تعرف (لميس) !

* * *

وقضيت و (ثريا) أيامًا سوداء كقلب الكافر ..

الشرخ فى جدار أمننا صار أخدودًا .. ثم فالقًا جيولوجيًا يوشك أن يبتلع حياتنا كلها ..

لو أخذنا بظاهر الأمور لأيقنا أن الفتاة صادقة فى كل حرف

قالته لى ، وهذه الـ (لميس) تأخذها ـ بعيدًا عن كل قوانين الطبيعة ـ إلى أماكنَ غير عادية ، ولم تكن الفتاة كاذبة حين وصفت لى قاعة الجلوس فى الفلا بدقة .. بل وكان معها دليل مادى لا يُدحض ..

ثم جاءت صور الكاميرا لتدعم القصة ..

وهنا ـ يتساءل أحدكم ـ لماذا بيتى بالذات ؟!

إن الإجابة غير مشجعة على الإطلاق ..

متشبثين بحبال الطب النفسى إلى النهاية ؛ فتذكر أن الشخصية الثانية فى حالات (الفصام) تمقت المعالج بشدة باعتباره يحاول تدميرها لصالح الشخصية الأولى ..

وهكذا يسهل معرفة سر زيارة (لميس) المتكررة لدارى ..

إنها ـ بدقة علمية ـ ترغب فى الخلاص منى ..

أو هى تدبر لى شيئًا ما سيكون وبالًا فوق رأسى ..

والفالق يتسع أكثر ...

* * *

وفى تلك الليلة ..

كانت عقارب الساعة تدنو من العاشرة ..

وكنت أنا مختبئًا خلف مقعد فى قاعة الجلوس .. نعم ... هو ذلك الكرسى الذى تجلس فوقه يا د. (رفعت) !.. هو ذاته ..

كنت أنتظرها .. ولم أتوقع أنها ستأتى ..

لكنها جاءت ..

وفى ضوء القاعة الخافت لمحت ثوبها الأسود ، ووسط الصمت المطبق سمعت حفيف ثوبها وقرعات كعبيها .. ، كانت تسير فى تؤدة ..



ووسط الصمت المطبق سمعت حفيف ثوبها وقرعات كعبيها ..،
كانت تسير فى تؤدة ..

وانتصب شعر رأسى ..

لم يعد هناك مجال للشك فى حقيقة الأمر .. ، إن هذه الفتاة قد خرقت كل حواجز الطبيعة ، واجتازت الأبواب المغلقة والنوافذ الموصدة لتكون هنا ..

إنها (شىء) ولا يمكن أن تكون كائنًا بشريًا ..

وفى ذعر امتدت يدى إلى مفتاح النور فساد الضوء المكان ..

رفعت وجهها نحوى فى بطء .. وابتسمت ابتسامة غامضة ..

كانت شاحبة .. لكنها هى هى .. ذات الملامح والشعر المنسدل ، لكن فى ملامحها كانت هناك قسوة غير عادية ..

ـ (سوزان) !

كذا ناديتها فلم يبد عليها أنها سمعت شيئًا ..

ـ (لميس) !

بدأت تستجيب أخيرًا .. ، وفى برود ـ كلوح ثلج يتهشم ـ تساءلت :

ـ أنت ؟

ـ بالطبع أنا ..

ارتسمت ضحكة وحشية على ثغرها ، وبدأت تسير نحوى فى تؤدة ..

ـ جئت أراك وأسألك .. لماذا تريد قتلى ؟

ـ أنا ؟.. ولماذا ؟

ـ من أجل المخلوقة التافهة (سوزان) .. أنظر !.. هى لا تخترق الجدران ولا تطير ولا تلتهم النيران .. أما أنا فأفعل ..!

وتقلص وجهها وهى تواصل التقدم نحوى .. وأردفت :

ـ إنك قد اخترت المعسكر الخطأ ..

ولمحت نصل سكين يلتمع فى يدها .. أخرجته من حزامها الفضى ..

ـ وعليك أن تدفع الثمن ..!..

صحت وأنا أثب للوراء محاولاً أن أطيل اللحظة الفاصلة قدر الإمكان (وحتى لا أستسلم للهلع) :

ـ (لميس) !.. كفى عن هذه اللعبة !

ـ أية لعبة ؟

ـ لعبة الجنون .. إنك ترين الكثير من الأفلام ، وتعتقدين أن الفصام يزيد من غموض المرأة وسحرها ..

وازددت تراجعًا للوراء محاذرًا أن أصطدم بقطع الأثاث :

ـ لكنك لن تخدعينى أبدًا ..

همست بصوت كفحيح الأفعى وهى ترفع السكين :

ـ كنت أنتظر هذه اللحظة .. لكنى شئت أن أفزعك أولاً .. أن أتركك تتساءل عن كنه ضيفتك الغامضة أيامًا وأيامًا ..

وانقضت علىّ صارخة بالفرنسية (دون مبرر فى الواقع) :

ـ لقد انتهت الكوميديا !!

كانت قد صارت فى النقطة المناسبة تمامًا ..

وحين لمست الحبل ، وانطلقت مجموعة الميكانزمات المعقدة التى أعددتها لها فى صبر ، وحين سقطت شبكة الصيد المعلقة بإحكام

من السقف لتكبل حركتها .. ، كنت آمل ألا يكون الفكاك من الشباك جزءًا من مواهبها الخاصة ..

أجل .. هى طريقة بدائية شبيهة بأساليب قبائل (الزولو) فى صيد النمور لكنها كانت تعمل بكفاءة ، ولقد قضيت أربع ساعات مع (ثريا) صبيحة اليوم نجرب إمكانات هذا الاختراع .. ثم أننا تظاهرنا بالخروج بسيارتنا فى التاسعة مساء توطئة لأن أعود أنا متسللاً أنتظر الزائرة ..

الزائرة التى تتلوى فى شباكها كالنمر دون أية مبالغة أدبية ..

لو لم تكن فى المدينة مكبلين بالقوانين لطعنتها برمح واسترحت بالا ..

لكنى مرغم على طلب الشرطة للأسف وبسرعة قبل أن يتمكن هذا الوحش الكاسر من تمزيق سجنه بالسكين .. عندئذ لا يعلم سوى الله ما قد يحدث ...

* * *

وجاء رجال الشرطة وحملوها ـ كالخنزير البرى الهائج ـ إلى المكان الأخير الباقى لها كى تذهب إليه ..

وقالوا لى أننى نجوت بأعجوبة ، وأن الزملاء فى مستشفى الأمراض العقلية سيواصلون مسيرتى ، وقالوا إنهم آسفون على عدم تصديقى فى بدء الأمر لأنهم لم يملكوا خيطًا واحدًا يقودهم إليها ..

قالوا هذا وسمعته ..

لكنى كنت أدرك أن المأساة لم تنته بعد ، وأننا لم نصل للنهاية السعيدة المطلقة التى تختتم بها الأفلام السينمائية ..

إن فى القصة جانبًا غير مادى لم يتضح بعد ..
إذ كيف دخلت هذه الشيطانة دارى عشرات المرات ؟!

★ ★ ★

ومرّت الأيام فى هدوء تام ..
وكنت أتردد على عيادتى بانتظام كما هى العادة ..
إلى أن جاء ذلك اليوم ..
ذلك اليوم الذى فتح فيه الباب ولمحتها داخلة ..!
كانت أسنانها النضيدة البيضاء تتفرج عن ابتسامة مشرقة معسولة ، وكانت ترتدى ثيابًا زاهية اللون وقد عقصت شعرها ..
أما أنا ..
لا داعى لوصف ما حدث لى لحظتها ..
لقد وثبت مترًا إلى الوراء ومترين لأعلى .. وقفز قلبى إلى حلقى كالبرغوث ..
صحت فى صوت مختنق :
ـ أنت ؟
هزّت رأسها يمينا ويسارًا فى مرح .. وهتفت :
ـ افتقدتنى ؟ كنت منشغلة إلى حدّ ما ..
وجذبت كرسيًا .. وجلست عليه وقد وضعت حقيبتها على ساقيها كأن شيئًا لم يحدث ، وكأنها بانتظار لحظة البدء ..
ـ لـ .. لحظة من فضلك ..!
وبيد مرتجفة مددت إصبعى لقرص التليفون وطلبت رقم مستشفى الأمراض العقلية .. ثوان ثم رنت ممرضة ملول فسألتها عن

د . (صابر) صديقى .. ، وبعد دقائق سمعت صوته يتساءل عما هنالك ..
خفضت صوتى إلى درجة الفحيح .. وهمست :
ـ د . (صابر) .. هذا أنا .. (سامى) .. نعم .. بخير .. بخير .. كلهم على ما يُرام .. لا وقت للاجتماعيات أرجوك !.. قل لى .. متى خرجت تلك الفتاة من عندكم ؟.. الفتاة المصابة بالفصام ..
سمعت صوته المعدنى من السماعة يهتف :
ـ من ؟.. تعنى (سوزان) أو (لميس) ؟.. بالتأكيد هى ما زالت فى ضيافتنا .. فمن قال أنها خرجت ؟!
ـ مـ .. متأكد ؟
ضحك لثوان ثم سمعت صوته الواثق يردد :
ـ طبعًا !.. بل إنها جالسة فى مكتبى فى هذه اللحظة .. هل تريد أن تحدثها ؟.. هاك هى !.. د . (سامى) يريد أن يحييك يا (سوزان) !
رفعت عينى إلى الجالسة أمامى وكانت ترمقنى بنظرة ثابتة فيها سخرية خفيفة ، على حين سمعت الصوت المألوف فى السماعة :
ـ د . (سامى) ..!.. كيف حالك ؟.. أريد أن أعتذر عن كل الإزعاج الذى سببته لك ..!.. إنهم هنا طيبون حقًا وإننى لأتحسن باستمرار ..
هيه !.. د . (سامى) ..!.. لا تحقد علىّ .. لماذا لا تجيب ؟!
فى بطء أعدت السماعة لموضعها ورفعت عينى نحو الجالسة أمامى ..

ـ ما بك يا د . (سامى) ؟.. كأنك ترى شبحًا !
قالتها بنفس النظرة الغامضة الساخرة ..
وهنا تصلب جسدى .. ووقفت ببطء شديد .. وبصوت لم أعرف أنه صوتى سألتها :
ـ من أنتِ ؟
ـ هل تمزح ؟
ـ بل .. ما أنتِ ؟!
ـ ياله من سؤال !.. أنا (سوزان) بالطبع ..
ـ إذن من هى نزيلة المستشفى ؟
ـ قالت فى بساطة وهى تنقل ساقًا فوق ساق :
ـ وهل هناك نزيلة فى المستشفى ؟
كنت قد انتهيتُ تمامًا .. ولم أدر تمامًا حقيقة ذلك الذى أفعله ، لكنى كنت أضرب المكتب بقبضتى .. وأصرخ فى هستيريا :
ـ إسمعينى أيتها الفتاة !.. أنا لن أتحمل أكثر !.. ابحثى عن أحمق آخر تتسلين عليه بألاعيبك .. أما أنا فقد انتهيت تمامًا ..
وكانت هى محافظة طيلة الوقت على وقار جلستها .. مكتفية بأن تطقطق بشفتيها فى تصعب مرددة عبارات من نوع :
ـ كذا ؟.. حقًا ؟.. يا للخسارة !..
وكنت قد وصلت للنهاية فأرجعت ظهرى للوراء وغطيت وجهى بكفى .. ولذت بالصمت ..
ساد السكون الثقيل اللزج بضع دقائق ..

ثم إننى رفعت وجهى نحوها .. وهمست :
ـ اذهبى !.. أنا لن أستطيع معاونتك !
ـ ولكن ...
ـ اذهبى عليك اللعنـة !!
نظرت لى لحظة ثم أنها جمعت حقيبتها واتجهت للباب فى تؤدة وكبرياء .. وعلى الباب استدارت ونظرت لى نظرة خاوية من المعنى ثم أغلقته وراءها ...

★ ★ ★

فى الصباح التالى على مائدة الإفطار بدأت أشعر بالتحسن .. كأن حملًا ثقيلًا انزاح عن كاهلى ..
وهنا سمعت زوجتى تقول وهى تضع الصحيفة أمامى :
ـ هل قرأت هذا الخبر ..؟..
توقفت عن المضغ وأنا ألمح صورة (سوزان) فى ركن الخبر العلوى ..
ولم تكن عيناها مفتوحتين بل مغلقتين .. وخصلات شعرها الأسود كالمبتلة تغطى أكثر وجهها .. كانت ميتة .. ميتة جدًا ..!
وبيدين مرتجفتين وعينين زائغتين عرفت أنها وُجدت غريقة فى النيل وأنهم لم يعرفوا من هى قط .....
أنا فقط كنت أعرف ...
أنا الذى بادرت بالاتصال بالمستشفى سائلًا عنها ، والجواب ـ كما توقعت ـ هو أنها اختفت أمس فى السابعة مساء ..

زنزانتها أو حجرتها ـ كما قالوا ـ كانت محكمة الغلق لكنهم لم يجدوها بالداخل ، وفتشوا كل مكان دون جدوى ..

لكنهم لم يعلموا أنها فى أعماق النيل فى تلك اللحظات ..

* * *

وتبقى أسئلة بلا جواب ...

هل انتحرت (سوزان) لتستريح من المس الشيطانى الذى أصابها ، والذى لم يعد لدىّ شك فى وجوده ؟..

أم أن (لميس) حاولت أن تسبح بهذا الجسد الذى لا يجيد السباحة فى مغامرة طائشة أخرى من مغامراتها ..؟

ومن هى التى جاءتنى بالأمس ؟..

هل هى (سوزان) أم (لميس) ؟.. ومن هى التى كانت فى المستشفى ؟.. وكيف وصل الفصام إلى درجة انقسام الجسد المادى ذاته ؟!..

إن رأسى ينفجر ..

بل ـ الأدهى ـ هل هلكت فعلًا أم أنها حاولت إقناعها بذلك ؟..

التفسير الوحيد لكل هذا هو المس الشيطانى ـ نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ الذى أصاب تلك الفتاة ، وبالتالى خرج الأمر من دائرة المنطق والماديات إلى آفاق ما وراء الطبيعة ..

ولا داعى للقول أن الكابوس سيعيش حيًا فينا ما حيينا ..

وأننى ـ حتى اليوم ـ أترك الكاميرا من حين لآخر كى تلتقط صورًا تلقائية للقاعة عند خروجنا ، فقط لأتأكد من أنها لم تعد ..

* * *

لقد ظنت البائسة أن شفاء المريض من جرثومة الدرن لا يكون إلا بقتله ! ، ربما كان هذا سخفًا .. وربما كان جنونًا .. لكنى لا ألومها كثيرًا .. لقد كانت مريضة .. وطلبت العلاج .. لكن الطبيب لم يدر كيف يتصرف ..

نسيت أن أقول لكم شيئًا أخيرًا ..

إن الصور التى التقطناها لها قد مرّت بنوع غريب من التحلل العضوى فلم يعد لها أثر ..

لقد رحلت الزائرة بعيدًا حاملة كل ما قد يذكرنا بها ..!..

* * *

القصة الخامسة

أنا و (الناقّ) !

تحكيها : (هويدا) ..

- ١ -

الساعة تدنو من الرابعة صباحًا ...

لقد انتهت بالفعل أية فكرة للعودة إلى ديارنا (هذه الليلة) ..

لا أدرى متى ولا كيف انتهت لكننا فجأة أدركنا حقيقة أننا (غدا) ..!

قال (شكرى) فى عصبية قاذفًا بعقب سيجارته إلى الأرض (ثم تذكر أنه ليس فى داره فالتقطه ودفنه فى المطفأة) :

ـ أنا أمقت النهايات المفتوحة !

قلت وأنا أتثاءب :

ـ وأنا أحبها !

ـ أحب وضع النقط فوق الحروف .. من فعل ماذا ولأى غرض ؟..

هذه هى ميزة القصة .. أن تضعك فى وضع المراقب اليقظ العليم .. فإذا لم تحقق لك هذا فما جدواها إذن ؟.. وما الذى يميزها عن الحياة ؟!

قال د . (سامى) فى بساطة :

ـ أنت مصرّ يا أستاذ (شكرى) على اعتبار قصصنا مؤلّفة .. ولكن هذا هو ما حدث بالضبط .. يمكنك أن تحبه أو لا تحبه لكنه حدث !..

وكما قال د . (رفعت) لا يمكنك أن تتهم الثورة الفرنسية مثلًا أنها ركيكة !

هرش (شكرى) لحيته فى ضيق .. وغمغم :

ـ كنت أصبو إلى اتضاح الأمور و ......

وهنا سبحت الغرفة فى الضوء الأبيض الخاطف لجزء من الثانية .. وثبنا كالملسوعين من مقاعدنا ونحن بعد لم نعرف ما الذى نعتقده .. لكن د . (سامى) رفع كفه فى تؤدة وهتف :

ـ إنه ميعاد التصوير الجديد !.. هل نسيتم ؟.. لقد أعددت لكم مفاجأة صغيرة لأختبر أعصابكم بعد قصتى ..!..

وهنا برزت مدام (ثريا) من خلف الستار حاملة الكاميرا وفوقها الفلاش .. وكانت تضحك فى تشفٍّ حقيقى ..

ـ يا لها من فكرة !

ـ إذا كان المطلوب هو الرعب فى حد ذاته .. فلا تنكروا أننى قد وُفقت إلى حدٍ كبير ..!.. لقد وثبتم من مقاعدكم ككرات البنج بونج !

قالت (هويدا) وهى تتنهد وتسترخي فى جلستها :

ـ لقد صارت أعصابى كالزنبرك المشدود .. وسأنفجر صارخة فى وجه أى شخص فى أية لحظة !

أشرت لها .. وابتسمت :

ـ لقد جاء دورك فى الإرعاب بعد الارتعاب ..

نظرت للسقف فى حيرة وخجل .. ثم غمغمت :

ـ دورى أنا ؟

ـ طبعًا ..

ـ قصة مرعبة ؟

ـ نعم .. ولكن لا تحكى قصة المرآة لأن (سهام) حكتها .. ولا تحكى قصة الفرعون (أخيروم) لأننى حكيتها للقراء ..!

قالت وهى تحملق فى السجادة معابثة نقوشها بطرف حذائها :

ـ إن هذا صعب .. ولكن .. مهلًا .. عندى قصة أعتقد أنها ستشد اهتمامكم إلى حدٍ ما .. ، أنتِ تعرفين (ميمى) صديقتى يا (سهام) وتعرفين مشاكلها بعد سفر زوجها (بلبل) للخارج تاركًا إياها وحيدة مع (مشمش) .. إن (ميمى) ......

قاطعتها فى كياسة :

ـ أ ... (هويدا) .. هل يضايقك كثيرًا ذكر الأسماء الكاملة بدلًا من أسماء التدليل المستفزة هذه ؟!.. سيكون صعبًا على أن أتذكر من هو (بلبل) و (مشمش) و (ميمى) ..

نظرت لى فى ضيق .. وهزت رأسها مستسلمة :

ـ ليكن .. ولكن لا تقاطعنى ثانية .....

....

* * *

قالت (هويدا) :

ـ أنا أمقت الأطفال !.. ، أعرف أنه من العار أن تعترف امرأة بذلك .. لكنكم لستم أغرابًا .. ، نعم أنا أمقت الأطفال خاصة حين يصلون إلى السن الكريهة التى يمكنهم فيها جذب ذيول القطط وكسر المزهريات الثمينة .. السن التى تتلوث فيها أنوفهم بالمخاط وركباتهم بالميركيوركروم ويصدرون أصواتًا سخيفة عند اللعب ..!

أمقتهم .. ولم أكن متجنية تمامًا فى ذلك ...

* * *

- (هويدا) .. لقد توفيت خالتى !

قالتها وانفجرت فى البكاء ..

- (مها) !.. لا عليك يا حبيبتى .. كلنا سنشرب ذلك الـ ......

...... إلخ .. إلخ ..

شرعت أواسيها عبر سماعة الهاتف لكنها - بالطبع - لم تصغ لحرف من كلامى ..

ثم إنها استنشقت دموعها .. وهتفت عبر السماعة :

- (هويدا) .. لقد جاءنى الخبر من (كفر الزيات) منذ دقائق .. وعلىّ أن أذهب هناك الآن ..

كانت (مها) تعيش وحدها فى (الإسكندرية) بعيدًا عن عائلتها التى احتشدت كلها فى (كفر الزيات) ، وكان زوجها قد سافر للخارج لكنها لم تستطع ترك الدار والإقامة فى مسقط رأسها .. وذلك لظروف العمل ومدرسة (مجدى) ابنها الوحيد ..

وكنت أعرف ما ستطلبه بالتأكيد لأن امتحانات ابنها تبدأ بعد غد ، ولا يمكنها إضاعة وقته بالسفر معها .. ولا يمكنها ألا تسافر .. من ثم ..

- أريدك أن تعتنى بـ (مجدى) حتى أعود ..

- لا مانع ..

قلتها بصوت مبحوح لأننى - كما قلت لكم - أمقت الأطفال ، لكن نداء الواجب لا يعرف الميول الشخصية ..

لهذا أردفت فى استسلام :

هل تحضرينه لى أم آتى لآخذه ؟!

- لا يا حبيبتى .. أريدك أن تأتى لتمضى الوقت معه هنا ..

لأنه - كما قلت لى - لن يستطيع أن يركز أفكاره فى بيئة مغايرة - وربما معادية - مثل بيتى .. وقد أثار هذا حنقى .. إن هذا (المفعوص) فى السنة الثالثة الابتدائية فأى شىء ستفعل وتقول حين يصير فى الثانوية العامة ؟!

- ولكنى لن أترك أمى ..

- لن أتأخر يا (هويدا) .. أقسم لك .. سأعود مع الليل .. وعندئذ تعودين مشكورة لدارك ، على أننى سأطلب منك ذات الشىء غدًا ..

- فليـكن ..

إن بضع ساعات لن تضرّ أحدًا خاصة ودارها قريبة من دارى ولن يكون الانصراف مشكلة ..

وهكذا .. ذهبت لأعمل (جليسة أطفال) دون أجر ..

★ ★ ★

ما أن دخلت من الباب حتى ارتمت (مها) فى أحضانى دامعة العينين ذابلتهما .. ، وأخذت تنهنه وتمخط على كتف ثوبى الجديد وأنا أردد عبارات من نوع (كلنا سنموت ، استراحت المسكينة ، البركة فيك) ..

حتى غلبنى البكاء فشرعت أبكى معها ..

ثم أنها أغلقت أزرار ثوبها الأسود وقادتنى إلى الداخل ..

وكان طفلها (مجدى) واقفًا يرمقنى ممسكًا بقط أبيض ضخم ..

(مجدى) الذى طالما وصفته أمه بأنه يملك من الذكاء ما يفوق سنه بمراحل وبشهادة كل المربّين الذين صادفوه ..

وحين رأيته عرفت أنه هو ..!

ذلك الطراز المزعج من الأطفال الوقحين المدللين المدمرين الصاخبين المتوحشين المخربين القذرين الكذوبين الـ .... كل الصفات القاتلة التى يمكننى تعدادها إلى يوم الدين ..!

لقد وقعت فى الشرك ولا حول ولا قوة إلا بالله ..

كانت (مها) تهرول بفردة حذاء واحدة هنا وهناك شارحة لى (طقوس) دارها .. وإلى المطبخ قادتنى وأشارت إلى الموقد :

ـ هاك .. أرز وبطاطس أعددتهما له على عجل .. إذا جاع مساءً يمكنك أن تطعميه ... و .....

وهرعت إلى الثلاجة وفتحتها وهى ترتدى فردة الحذاء الأخرى :

ـ هناك .. مياه غازية وآيس كريم .. فى الثامنة مساءً بعد أن يتناول عشاءه ... و .....

ثم التقطت حقيبتها وهرعت إلى الباب .. وهتفت قبل أن تخرج :

ـ خذى الحذر .. ولا تدعيه يشنق القطة فهو يحاول ذلك من شهور ..!

ـ يشنق ماذا ؟!!

ـ القطة .. ولا تدعيه طبعًا يأكل الصبّار الموجود فى الشرفة ..!

ثم أنها عانقتنى .. وانفجرت باكية :

ـ آه !.. يا خالتى الحبيبة !



وكان طفلها (مجدى) واقفًا يرمقنى ممسكًا بقط أبيض ضخم ..

ودعتها على السلم وأنا لا أرى شيئًا من الدموع أنا الأخرى ..

ثم عدت لأبدأ مهمتى المستحيلة ..

* * *

كان واقفًا فى الصالة كما تركناه واضعًا يده فى جيبه وبيده الأخرى يمسك بالقطة ..

وكانت عيناه وقحتين شرستين إلى أقصى حد ..

قلت له فى حزم وأنا أشير إلى غرفته :

ـ والآن يا (مجدى) اترك القطة وابدأ المذاكرة ..

لم يبد علامة توحى بسماع ما قلت .. وفى برود سأل :

ـ أنت المربية الجديدة ..؟

ـ أنا صديقة أمك ..

ـ وستعنين بى ؟

ـ .. وأجبرك على المذاكرة كذلك ..

ـ وكم دفعت لك أمى ؟!

صعد الدم إلى رأسى .. وصحت به :

ـ كف عن الوقاحة وادخل غرفتك ..!

لثوان التقت عينانا وتصادمت الإرادتان .. ثم خضع أخيرًا وألقى بالقط على الأرض وهتف وهو يهز كتفه :

ـ لقد ذاكرت بما يكفى ..

ـ إذن زد على ما يكفى ..

نظر فى عينى .. وابتسم ـ أوقح ابتسامة رأيتها فى حياتى ـ وغمغم :

ـ ألا تخافين من (العاوّ) ؟

ـ (عاوّ) ؟!

وهنا تذكرت تلك اللفظة السخيفة من أيام طفولتى ..

(العاوّ) هو غول عملاق أو شيطان هائل أو جنى جبار أو كلب ضخم أو ـ باختصار ـ هو كل ما يخيف الأطفال ، إن هذه الكلمة تلخص فى براعة مئات الكائنات الشيطانية ، ومهمة (العاوّ) ـ كما تراها الأمهات ـ تتلخص فى التهام الأطفال الأشقياء ..

أنا أيضًا كنت أخاف (العاوّ) ولكن كان ذلك منذ دهر ..

يا لذكريات الطفولة ويا لمخاوفها ..!..

لقد كان (العاوّ) متعدد النشاطات .. فهو يلتهم الفتيات الصغيرات اللواتى تتسخ ثيابهن ، أو يهملن وضع الشريط ليعقصن شعورهن ، أو يضعن إصبعًا فى أنفهن ، أو يكذبن ، أو يضربن الأولاد ... أو ... أو ...

كانت النجاة من (العاوّ) ضربًا من المستحيلات ..

لكننى نجوت .. نجوت ...

واليوم أنا شابة ناضجة فى الثلا ... أ .. فى الخامسة والعشرين من عمرى ولن يستطيع أى (عاوّ) أن يلتهمنى دون مسائلة قانونية ..

ـ ألا تخافين من (العاوّ) ؟

كان السؤال معلقًا بعد .. ، وكان ينتظر إجابة ..

ـ أنا لا أخاف (العاوّ) لأنه لا يلتهم سوى أمثالك ..

إنفجر يضحك ..

ضحكة غريبة عصبية لم تكن متوقعة من طفل .. وسمعته يهتف :
ـ إذن .. هل يضايقك أن تعرفى أن (العاو) هو أنا ؟
ـ حقًا ؟.. سيغمى علىّ ..
ـ تظنين أننى أمزح ..
ـ اسمع أيها القرد الصغير .. لن أسمع كلمة أخرى .. هيا ! ابتسم فى ثقة ..
ثم اتجه إلى حجرته متبخترًا بشكل مبتذل ..
سيكون من الصعب علىّ ألا أقتله فى الساعات التالية ..!

★ ★ ★

أمضيت ساعة كاملة أستمع للراديو وأتصفح المجلات النسائية التى وجدتها على الأريكة .. كانت (مها) قد أخرجت بعض (الباترونات) وأعدت مقصًا وقماشًا حين جاءها النبأ المشئوم كما هو واضح ..
وهنا شعرت بتأنيب ضمير ..
لماذا جئت من دارى إذن ما دمت سأكتفى بسجن هذا الطفل ؟.. وأية رعاية أقدمها له بجلوسى هنا ..؟
نهضت فى تثاقل إلى غرفته وفتحت الباب ..
ـ (مشمش) ..!.. هل تبغى شيئًا ؟..
ودلفت إلى الحجرة فلم أجده ..
كانت الغرفة خاوية تمامًا .. غرفة طفل أنيقة ومهندمة لكن الحوائط كانت مزدانة بصور شيطانية لوحوش ومصاصى دماء إلخ .. صور تم قصها من المجلات وإلصاقها على الحائط ..

ويا له من مزاج لطفل فى التاسعة من العمر ..!
كانت الستارة تتطاير عبر باب الشرفة المفتوح إلى داخل الحجرة .. وكانت رائحة الليل العطرة تملأ هواءها .. الليل الوليد البكر ..
جريت إلى الشرفة لأبحث عنه فلم أجده !..
طار صوابى رعبًا وانحنيت على سور الشرفة باحثة عن جثة صبى فى التاسعة من عمره مهشمة على الأسفلت فلم أجد واحدة .. و ... كرانك !..
نظرت للخلف فأدركت أن باب الشرفة قد أغلق دونى !..
لقد فعلها الشيطان !.. ولابد أنه اختبأ تحت الفراش بعد ما فتح باب الشرفة ليغرينى بدخولها .. ، وما إن دخلت حتى فعلها !
والآن أنا فى مأزق !.. لن يفتح لى وسيخرب فى البيت كما يشاء حتى تعود (مها) .. يمكننى أن أصرخ وأقرع الباب مرارًا لكن كل هذا سيبوء بالفشل فهو يعرف ما سيحدث له لو فتح الباب !..
ماذا أفعل إذن ؟..
ظللت ربع ساعة أرمق الناس من الشرفة عاصرة ذهنى بحثًا عن حل ملائم فلم أجد ..
ثم إننى نظرت إلى الباب من فوق كتفى فرأيت الباب مفتوحًا ..!
إذن لقد عاد وفتحه لى بعد أن أرعبنى قليلًا ..
إن هناك ـ برغم كل شىء ـ بعض الآدمية فى هذا الطفل ..
لن يكون عقابه أسطوريًا كما أزمعت ..
وفى تؤدة دخلت الحجرة ..
كان جالسًا على مكتبه منهمكًا فى الدراسة ..

في يده قلم رصاص وأمامه كتاب مفتوح به بعض مسائل الكسور .. ، وحين رآني ابتسم في رقة .. وهتف :

- أنت في الشرفة يا طانط (هويدا) ؟!

صعد الدم إلى رأسي ، وصحت مقلدة لهجته :

- يا سلام !.. في الشرفة يا طانط (هويدا) !.. يا للأدب والرقة !..

ومن تظنه حبسني بالداخل أيها القرد الصغير ؟!

بدت عليه دهشة حقيقية :

- هل كنتِ محبوسة ؟.. لماذا لم تناديني ؟!

شعرت بأنني سأصاب بجلطة مخية من الغيظ .. فاكتفيت بأن اقتربت منه واعتصرت أذنه في غلّ :

- إسمع يا فتى !.. لو حدث هذا ثانية فلن تجد أمك بقايا تدفنها !

قال متأوهًا وهو يضغط على أسنانه :

- أنت .. آه !.. شرسة الطباع !..

بعد ثوان بدأ غضبي يتلاشى .. فاختلست نظرة إلى كتابه وأطلقت سراح أذنه .. ، إنه لا يجيد الحساب أيضًا .. الطفل الذي يعتقد أن ثمانية في تسعة تساوي أربعين هو طفل في مأزق دراسي ..!..

- ألا تعرف جدول الضرب ؟

رفع رأسه نحوي ممسكًا بأذنه اليسرى الحمراء كالدم .. وفي تؤدة غمغم :

- كلنا لا نعرف جدول الضرب !

- ومن أنتم ؟

- نحن مصاصو الدماء !

ثم ضحك ضحكته الغريبة الساخرة ..

* * *

بعد نصف ساعة ذهبت لغرفته ، ووقفت على الباب سائلة :

- هل تريد أن تأكل الآن ؟

رفع رأسه نحوي وهرش في رأسه :

- ماذا آكل ؟

- أرزًا وبطاطس ..

باشمئزاز مطّ شفته السفلى وتثاءب :

- لا أريـد ..

- لابد أن تتعشى ..

- ولماذا يأكل (العاق) أرزًا وبطاطس مادمتِ أنتِ موجودة ؟!

* * *

بعد قليل خرج للصالة حيث كنت جالسة ، وشرع يدور حولي كأنما يريد شيئًا فسألته وأنا أتصفح المجلة دون أن أرفع عيني :

- جعت ؟

- نعم .. ولكن ليس للبطاطس !

ووقف أمامي يتأملني بعض الوقت ، فتظاهرت أنني لا أعبأ حتى بسؤاله عما يريد .. إن هذا الطفل قد بدأ يثير أعصابي إلى حد غير معقول لكنني لن أدعه يشعر بذلك .. ، قال وهو مستمر في تأملي :

- إن أمي أكثر أناقة وجمالًا منك !

- شكرًا .. أعرف ذلك ..

- وأنفها أصغر ..

- لم أطالبك بالزواج مني ..

ثم إنني تمالكت أعصابي ، ونظرت له في برود :

- هل ستأكل أم لا ..؟

- هل يمكنني شرب بعض المياه الغازية ؟..

- لا بأس .. ولكن القليل منها جدًا ..

جرى إلى المطبخ وسمعت صوت فتح الثلاجة ، ثم صوت صب سائل فوّار .. وبعد ثوان جاءني حاملًا كوبًا به قليل من السائل الأسود الرغوي وقدمه لي ، وفي رقة وكياسة طلب مني أن أشربه كعربون صداقة لأنه يشعر أنني لم أرتح له كثيرًا ..

بدأت أشرب في شك متوقعة شركًا آخر لكن المشروب كان لذيذًا منعشًا وشعرت أن حقدي يذوب تدريجيًا .. ، أما هو فجلس على الأرض عند قدمي يداعب القط البدين في فظاظة ..

دقائق ثم قال لي دون أن ينظر نحوي :

- كانت عندنا مربية قبلك ..

- قلت لك إنني صديقة (ماما) ولست مربية ..

هز رأسه في تؤدة بمعنى أن هذا ليس خطأ جوهريًا .. واستطرد :

- كانت سيدة طيبة .. لكنها مرضت مرضًا شديدًا ..

- إن مربيتك لابد أن تصاب بالسرطان والسكر وارتفاع ضغط الدم ..

- كان لونها يبهت .. ويبهت .. كل يوم .. حتى صارت صفراء كالبرتقالة .. ، وخفّ وزنها وظهرت عظامها ..

- وهل جاء لها الطبيب ؟

- نعم .. نعم .. وقال إنها مصابة بالـ .. باللامينا ..

- تعني .. أنيميا ؟

- ربما كان ذلك .. ولم يعرف أحد السبب .. ثم تركتنا .. وتقول (ماما) إنها ماتت في المستشفى ..

تنهّدتُ في صبر .. وهمستُ وقد تذكرت ما حكته لي (مها) عن هذه القصة الأليمة :

- رحم الله الجميع ..

- لكنهم لم يعرفوا أو نسوا حقيقة هامة .. هذه المرأة كانت تنام جواري في الفراش كل ليلة ..!.. وهذا هو خطأ الكبار .. إنهم لا يصدقون الصغار أبدًا مهما حدث .. ولطالما أنذرتهم !

لم أفهم ما يعنيه فنظرت له متسائلة ..

ازدادت بسمته الوقحة اتساعًا .. ثم قال من بين أسنانه :

- ألم تفهمي بعد المأزق الذي أنتِ فيه ..؟!

واتسع ثغره أكثر وأكثر .. وأردف :

- وحيدة مع (العاق) في شقة موصدة بالمفتاح !!

★ ★ ★

- ٢ -

- موصدة ؟.. ماذا تعنى بموصدة ؟

- أنا أغلقتها بالمفتاح من الداخل !

قالها فى فخر وهو يثب للخلف مبتعدًا عن منالى .. ، فى حين صحت فى ذهول :

- ولكن .. لماذا ؟.. وأين المفتاح ؟

- أخفيته !

نهضت نحوه فى شراسة عازمة أن أرتكب أولى جرائم القتل فى حياتى ..

لابد أن السفاحين جميعًا يبدءون هكذا .. ، لكنه تملص من يدى وشرع يقهقه ويصفق ..

- لن أخبرك مهما فعلت بى !..

ثم إنه جرى للمطبخ فهرعت خلفه لأرى ما سيفعل ..

كان عائدًا من هناك حاملًا علبة دواء صغيرة يبدو أنها فارغة ، وما أن رآنى حتى وثب جانبًا رافعًا العلبة فى يده .. وعلى الغلاف قرأت كلمة (ميبروباميت) ، وهذه الكلمة مألوفة لى لأنها الدواء المنوّم الذى كنت أعالج به بعد الانهيار العصبى الذى تلا انفصالى عن (ها .....) أعنى بعد أرق مستمر عانيت منه ..

ولكن ما معنى هذا ؟

- معناه يا طانط (هويدا) أنك شربتِ عشرة من هذه الأقراص فى كوب المياه الغازية !!

- أيها الشيطان الصغير !.. ولكن لماذا ؟

صاح فى براءة كأنما أهنت طفولته :

- وكيف أمتصّ دماءك - أنا (العاقّ) - ما لم تنامى ؟

إن هذا الطفل مجنون أو ممسوس .. ليست هذه تصرفات أطفال أبدًا .. هل حقًا شربت هذا المنوّم ؟.. إذن سيكون أمامى ربع ساعة قبل أن أدخل غيبوبة عميقة لأن هذه الجرعة سامة بالتأكيد .. ، والواقع أننى بدأت أشعر بليونة فى ساقى ودوار فى رأسى وثقل فى جفنىّ ..

- (مجدى) !.. هات المفتاح فورًا !

- مستحيل ..!

صحت فى هستيريا :

- ولكن لماذا تفعل ذلك ؟

- لأننى (العاقّ) !

ثم أردف وهو يتواثب حولى كالضفدع :

- هل سمعتِ عن (الثاليدوميد) ؟

تصلب جسدى إذ سمعت هذه الكلمة ..

لم أتصوّر قط أن يعرف طفل فى التاسعة من عمره معناها أو نطقها ..

ولقد أعادت لى ذكرى ذلك العقار المشئوم الذى أنتجته إحدى شركات الأدوية فى أوائل الستينات كمسكن للحوامل ، وكانت نتيجته

كارثة .. لقد وُلد جيل كامل من الأطفال بلا أطراف وكانت مصيبة فى العالم وأفلست الشركة وتم وقف إنتاج العقار (*) ..

ولكن ما دخل هذا العقار فيما يحدث ؟..

قال مفسرًا وهو يلهث من جراء مراوغتى :

ـ أنا من أطفال (الثاليدوميد) .. أحضره أبى من الخارج لوالدتى ، وجئت أنا للكون بكامل أطرافى .. ، إلا أن العقار كان له أثر غير متوقع فى وظائفى الحيوية .. ولم يشعر (بابا) أو (ماما) بالفارق لأننى أجدت إخفاءه !

ثم اقترب منى خطوة والتمعت عيناه :

ـ لا أستطيع الحياة دون دم !.. ومشكلتى هى العثور عليه .. فى البدء كانت المربيات وأصدقائى فى المدرسة لكنها كانت كميات محدودة ، أما اليوم فقد سنحت لى الفرصة كاملة لإرواء ظمئى ..!!

تراجعت للوراء على الرغم منى بضع خطوات .. وصحت :

ـ كف عن خداعى :!

ابتسم فى ثقة .. وسألنى :

ـ بصراحة .. هل رأيت طفلًا فى سنى يتحدث ويتصرّف مثلى ؟

ـ بصراحة .. لا ..!

ـ إذن صدقى ما أقول .. وعلى كل حال سيتضح الأمر بعد دقائق !

★ ★ ★

(*) حقيقة .. وللأسف عاد العقار للظهور فى بعض الدول النامية برغم أنف منظمة الصحة العالمية ..

وثبت إلى الوراء صائحة فى هستيريا :

ـ سأصرخ !.. وساعتها ستشرح قصتك للجيران !

طقطق بشفتيه فى أسى .. وهمس :

ـ وإذا كانت هذه دعابة سخيفة من طفل .. ، هل فكرت كيف ستفسرين موقفك ؟!

ـ إذن سأوسعك ضربًا حتى أهشم عظامك .. ووقتها لن يمكنك إيذائى حتى لو فقدت الوعى ..

عاود الضحك فى ثقة .. ومن فمه خرجت الكلمات القاسية :

ـ ذات المشكلة .. كيف تفسرين للجيران ولأمى وللشرطة قيامك بتهشيم عظام طفل برىء ؟.. أمانة طُلب منك رعايتها .. إن القسوة لن تنتهى من هذا العالم أبدًا !

نفس الشعور الذى ينتابنى حين ألعب الشطرنج مع (رفعت) وهو من هو فى إجادة اللعب .. ، كل الخانات مغلقة وكل لعبة لها خطرها الجسيم .. واتخاذ القرار مشكلة ..

ولكن لابد من حلّ ..

ـ إذن سأقيدك بالحبال حتى تصل أمك !

ـ عندئذ أصرخ أنا داعيًا الجيران كى يروا ما تخفيه النساء من شر خلف مظهرهن الرقيق ..!

والتمعت أسنانه البيضاء المسوسة .. وأردف :

ـ ألم تفهمى بعد المأزق الذى أنت فيه ؟

إن وعيى يتخلى عنّى ..

يجب أن أكبل هذا السفاح أو أشله قبل أن أنام ..
من الممكن أن أقتحم الشرفة وأصرخ كى ينقذنى أحدهم .
لكن الاحتمال ما زال قائمًا فى أن تكون هذه لعبة أطفال سمجة ، ولكم أمقت أن أرى نفسى ـ أنا الخجول اليائسة ـ أحدث فضيحة فى الحىّ كله من أجل لعبة أطفال ، دعكم طبعًا من نظرة (مها) إلى صديقتها الهستيرية التى لم تتحمل رعاية طفلها ساعتين ..!
عليك اللعنة يا (مها) أنت وطفلك الكريه !..
أية تربية تلك التى تنجب سفاحًا كهذا ..؟!..
وفى ثقة ـ كأى زعيم (مافيا) نال من خصومه ـ دلف لحجرته مرددًا :
ـ سأدرس قليلًا حتى تستعدى !!
يا للوغـد !..
وحدى وقفت فى الصالة أترنح ..
لا جدال هنالك !.. إن وعيى يتسرب .. وقدمىّ تتحولان إلى هلام .. ورأسى تزن طنين ..
يجب أن أتصرف ..
لن أصرخ .. لكنى سآخذ بالحلّ الأحوط ..
سأقيده وليكن ما يكون ، وحين تعود (مها) سأخبرها بكل شىء .. ولسوف تصدقنى .. نعم .. لابد أنها تعرف دعاباته وتتوقعها .
وجدت بكرة من (قطان) الستائر فحملتها فى يدى وتحاملت على نفسى داخلة الغرفة .. ستكون معركة قصيرة لكنها ضرورية ..

عندئذ رأيت ..
رأيت هذا الشىء واقفًا فى وسط الغرفة مديرًا ظهره لى ..
وحين سمع خطواتى استدار للوراء نحوى ..
كان يمسك بجثة القط الأبيض وقد تلوث عنقها بالدمّ .. ، أما عيناه فكانتا حمراوين تمامًا .. وكان الدم يسيل على فمه ويلوث ذقنه ..
وفى تؤدة ألقى الجثة أرضا وهمس لاهثًا :
ـ لقد طال الانتظار .. طال ..
ثم اتجه نحوى وهو يهمس :
ـ والآن فلينته كل هذا ..!.. لقد استنفد (العاق) صبره !
الضباب يزداد كثافة .. الصمت يغزو أذنى .. لم تعد لى قدمان ..
فقط أذكر أننى سقطت على الأرض وهو يجثم بجسده الصغير فوقى .. مجرد طفل لكنى أدركت أنه لم يكن سوى الشيطان ذاته .. ، هل كنت أصرخ ؟.. لا أذكر .. فقط أذكر وجهه الشرس وعينيه و ...
وشعرت بيد (مها) تنهضنى من على الأرض وتهتف :
ـ أرى أنك و (مشمش) صرتما صديقين !.. لكنك تضيعين وقته بهذا اللعب يا (هويدا) .. لماذا أغلقتما الباب بالمفتاح ؟.. وأنت يا (مشمش) .. ألم أقل لك أن تكف عن قلب جفنى عينيك ؟!.. يا لها من عادة سيئة !.. ولماذا لوثت دمية القط بالحبر الأحمر ولماذا لوثت وجهك به ؟!.. تبًا !.. إن هؤلاء الشياطين الصغار سيؤدون بنا للجنون !!



كان يمسك بجثة القط الأبيض وقد تلوث عنقها بالدم ..

نهضت مضعضعة باكية .. وسألتها :

ـ الـ .. الأقراص .. الـ (ميبروباميت) ؟

فهتفت فى لا مبالاة :

ـ أنت تعرفين .. هذه العلب تصلح تمامًا لحفظ البهارات بعد أن تفرغ .. ولكن لماذا تسألين ؟.. (مشمش) !.. قلت لك مرارًا ألا تحبس القط فى الدولاب .. حرام !.. أحيانًا أحسبنى قد أنجبت شيطانًا ..!.. على أننى راضية عن انسجامكما معًا يا (هويدا) خاصة وأننى ذاهبة إلى خالتى غدًا وسيكون عليك أن تكررى خدماتك اليوم ..

وأدمعت عيناها .. وفى هستيريا ولولت :

ـ آه !.. يا خالتى الحبيبة !!

★ ★ ★

ضحكنا حتى أدمعت عيوننا بعد أن أنهت (هويدا) قصتها :

وقال د . (سامى) وقد استعاد حيويته تمامًا :

ـ يا له من طفل !.. وإننى لأتساءل عن السفاح الذى سيكونه حين يكبر .. ، إنه شخصية (سايكوباثية) (*) بكل ما فى الكلمة من معان ، وإن تكيفه مع أخلاقيات المجتمع فيما بعد لجدير بالدراسة ..

ثم أردف وقد استعاد طبيعة المدرس :

ـ إن أقسام العقل الباطن هى (الهى) و (الأنا) و (الأنا العليا) .

ويمثل القسمين الأخيرين ما نسميه الضمير .. والطفل عبارة عن (هى) خام بلا شوائب .. مجرد غرائز تتحرك بلا أدنى وازع من ضمير .. ، لهذا يتمتع الأطفال بالأنانية والشراهة والقسوة إلى أن يعلمهم المجتمع كيف يكبحون غرائزهم .. وتنمو (الأنا) فى عقولهم ..

قال (شكرى) فى كياسة :

ـ لا أفهم كل كلماتك .. لكنى أعتقد أن هذه القصة جيدة حقًا وبها ذلك الرعب المتوتر النظيف الذى أصبوا إليه .. ، هل لدى أحدكم اعتراض على أنها أفضل قصص الليلة ؟

ـ لم نسمع قصتك بعد ..

نظر (شكرى) لساعته فوجد أنها الرابعة والربع فجرًا .. فهز رأسه فى حيرة .. وتساءل :

(*) سايكوباثية : شخصية شريرة مريضة فى تكيفها مع المجتمع ..

القصة السادسة

حكاية ليلة واحدة ..

يحكيها : الأستاذ (شكرى) ..

ـ إنه الفجر .. لن يتسع الوقت ..

ـ إنه الجمعة فلا داعى للاستعجال ..

جلس (شكرى) على أريكة واسعة وبدأ يسرد قصته ..

* * *

قال (شكرى) :

المستغيث من الرمضاء بالنار ..!..

هذا هو كابوس عمرى .. ، الكابوس الذى تعرفه جميعا .. أن يكون رجل الشرطة الذى نستنجد به من القتلة هو القاتل ! ، أن يكون البيت الوحيد الذى يختبئ به (حسن) من الذئب هو بيت الذئب ! .

إن هذا الرعب لا يُوصف ..

لكنه كامن فى شخصيتى منذ كنت شابًا ..

* * *

الملجـأ .. الملجـأ ..!..

العواصف تزأر من حولى وتلتهم أطراف معطفى ..

فى حين تنبح الكلاب فى ديارها النائية ..

والخيال ..!.. ما أقسى الخيال !.. حين يكشر عن أنيابه فى عقل مريض مثل عقلى ..

عقل يسرّه بالتأكيد أن يرسم لى عشرات الخيالات المريعة والأطياف المرعبة .

عبر الحقول المظلمة أمشى ..

أنظر للوراء فأرى ظلامًا ..

أرنو للأمام فأجد ظلامًا ..

أنظر لقدمى فأبصر ظلامًا ..

كلما رفعت عينى لأعلى خيل لى أننى سمكة ستسقط فى (وعاء الدبّ الأكبر) الذى ترسمه النجوم فى السماء إذ تلتمع خلف أستار الغمام ..

نجوم بكر ترسل ضوءًا أوليًا .. ولكنه ضوء وليد لم يتلوث بعد ..

ذلك الضوء الذى سقط على وحوش ما قبل التاريخ .. وعلى (يوليوس قيصر) .. وعلى جند (عمرو بن العاص) .. وعلى (بيتهوفن) ..

هو بعينه ذلك الضوء الخافت البكر ..

حفيف النباتات تحتج على سحقها تحت قدمى ..

بركة ماء ضحلة أخوضها هنا أو هناك ..

الريح .. الريح قبل وبعد كل شىء ..

إننى فى حال سيئة ..

ويجب أن أجد ملجأ ما فى مكان ما ..

* * *

لا تسألونى كيف وصلت هناك ..

ربما هو خلل فى محرك سيارة ، وربما هو قطار تعطلت محركاته فوقف فى الظلام كوحش مريض همد جسده ، وربما هو كابوس ..

لا يهم ..

المهم أننى كنت هناك ..

وأننى يجب أن أصل إلى مكان ما ..

حيث يعيش الآخرون ..

يجب أن أجد نارًا .. وأشم تبغًا .. وأسمع كلمات آدمية وإلا جننت ..

إن الخوف يتشكل من حولى ..

أرى وجهه وعينيه وذراعيه مبتورتى الأصابع تمتدان نحوى ..

أشم رائحته العطنة الملوثة بالعرق ..

وأسمع أنفاسه المذعورة اللاهثة .. "

وأحس بزحفه الحثيث فى اتجاهى ..

ملجـأ .. ملجـأ !

★ ★ ★

ثم رأيت النـار..

دائرة اللهب الحىّ الدافئ تحيط بالمكان ..

وما دام هناك لهب فهناك بشر .. ، لقد قالوا قديمًا : لا يوجد دخان دون نار .. وأقول أنا : لا توجد نار دون بشر ..

أصابتنى العدوى فتسرب دفء النار إلى قلبى ..

وهرعت متلاحق الأنفاس إلى هناك ..

وعلى الضوء الذهبى المتراقص كانت هناك نار يعلوها إناء لصنع الشاى مرتكزًا فوق ثلاثة أحجار ـ أو كما يقول العرب (أثافى) ـ .. وكانت هناك بندقية عتيقة على الأرض خطت عليها أرقام بدهان أبيض مما دلنى على أنها بندقية خفير ..

وعلى بعد أمتار كان ذلك العجوز جالسًا مدثرًا فى معطف أصفر من مخلفات الحرب .. ، وكان يرشف كوبًا من الشاى الأسود ..

كان وجهه ـ كالنجوم خلف الغمام ـ متسربلًا بالظلال التى ألقاها الوهج على ما حوله ..

لكنى ميزت شاربه الأبيض الكث ولحيته غير الحليقة ..

اقتربت فى تؤدة حتى بلغت موضعه .. وكان قد اصطنع لنفسه سقيفة صغيرة من أعواد الجريد تؤدى غرض حمايته من العواصف ، على الأقل بالنسبة للعواصف القادمة من خلفه ..

ـ سلام عليكم يا (حاج) ..

قلتها فى كياسة وأنا أقترب منه ..

ـ عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. اقترب يا بنىّ ..

كان صوته محشرجًا غليظًا ..

وإذ دنوت منه ، كان وجهه الآن واضحًا لعينىّ .. أرى الحاجبين الكثّين الأشيبين والعينين الرماديتين اللتين أفسدت الشمس والغبار بياضهما منذ دهر حتى صار رماديًا هو الآخر .. ، وكانت سحابة بيضاء تغطى إحدى الحدقتين ..

أما أسنانه النخرة من تحت شاربه الكث فقالت لى إنه يفرط فى تدخين (المعسّل) ..

وكان يرتدى (بول أوفر) قديمًا رثًا تبرز شعيرات بيضاء من تحت ياقته العالية كأنها شعيرات من عنق ضبع عجوز ..

ـ تشرب شايًا ؟

قالها دون أن ينتظر ردّى .. وفى يدى وجدت كوبًا من الشاى الأسود تتسرب سخونته المحببة إلى كفّى ..

آه من صوت الرشفة الجائعة تبعث الحياة فى أعصابى الواهنة !

قال وهو يتأملنى فى اهتمام :

ـ غريب ؟

ـ هذا واضح .. أنت تعرف القرية كلها طبعًا ..

ـ بل أنا لا أعرف أحدًا فى القرية ..!

معلومة غريبة لكننى فسرتها لنفسى بأنه وافد حديثًا إلى هذه المنطقة أو شىء من هذا القبيل ..

أردف وهو يحسو الشاى :

ـ قلت لنفسى إن من يمشى هنا ليلًا هو ولابد غريب ..

ولم يفسر أكثر .. بل مد أنامله فى النار ـ دون أدنى خوف ـ والتقط بضع قطع مشتعلة من الفحم ، ثم إستدار للوراء والتقط شيئًا ما عرفت أنه (جوزة) صغيرة .. وبدأ يعبئ المعسل بأنامله ، ثم رصّ الفحم فوقه وبدأ يمتصّ الدخان الأبيض ويطلقه من منخريه فى حنكة كقاطرة عجوز وحيدة ..

ـ هل لك فيها ؟

سألنى وهو يقرب عصا الغاب منى فهززت كفى شاكرًا أن لا ..

بعد دقائق من الصمت الذى له رائحة التبغ ؛ عاد يتكلم :

ـ .. إنهم يخشون (شاكر بك) ..

فى حيرة سألته :

ـ هل هو .. قاطع طريق مثلًا ؟!

انفجر يضحك .. يضحك .. يضحك .. وصدره العجوز يهتز بالسعال كأنه صندوق خشبى ملىء بالبلى ..

يضحك ويسعل .. ويسعل ويضحك ..

ثم بصق بعيدًا .. وقال :

ـ إن (شاكر بك) لا يُوصف بكلمات .. لكنه موجود .. ويتحرك .. وكلهم رأوه ولزموا بيوتهم لأنهم يعرفون ما سيحدث فى المرة القائمة ..

ـ أعنى .. هل هو شرير ؟

قال وهو يتأملنى فى هدوء :

ـ ليس شريرًا .. المصيبة أنه ليس شريرًا .. بل هو إلى الحزن أقرب ، لكنه ملعون .. وكل من رآه لم يعش يومًا آخر ..

تحفزت هوايتى العتيدة لقصص الرعب ، ودنوت منه أكثر :

ـ هلا حكيت لى قصته ..؟

ـ ستخاف جدًا .. هل تفهم معنى هذا ؟

ـ إن الخوف .. مهنتى ..

ـ إذن سأحكى لك كل شىء ..

* * *

سأحاول هنا أن أحكى القصة التى حكاها لى العجوز بأسلوبى أنا لأنه ـ بالطبع ـ لم يكن يملك أية حاسة أدبية ..

لقد وقعت القصة فى ثلاثينات هذا القرن ..

وبرغم أننى سأحكى القصة بشكل و (تكنيك) أكثر رقيًا فإن سحرًا

خاصًا لا يتكرر كان يغلف صوت العجوز المنهك وقرقرة (الجوزة) وقرقعة النيران والضوء الخافت والعاصفة ..

إن هذا السحر لا تقدر على نقله سوى السينما ، ولا يقدر أديب على تصويره ولا رسام على رسمه مهما بلغا من موهبة ..

لهذا .. سامحونى .. سأقتل نصف سحر القصة بأسلوبى الأعرج ..

كان (كمال باشا) يملك قصرًا فى تلك المنطقة ..

وكان طيب القلب ، إلا أن زوجته التركية المتغطرسة كانت تختلف عنه كثيرًا ، ولم يتهمها أحد يومًا بالرقة أو حسن معاملة الفلاحين ..

لكنها لم تؤذ ـ على الأقل ـ أحدهم قط ..

وكان لهما ابن يُدعى (شاكر) .. ، إبنهما الوحيد الذى يملك ـ بحكم الوراثة القريبة ـ كل هذه الضياع والأراضى والبشر ..

ككل العاطلين بالوراثة كان مستهترًا فظًا ، وحين كنت تراه وهو يمتطى صهوة جواده مرتديًا قميصه الأبيض مفتوح الصدر تبرز منه خصلات شعره الأشقر ، وعضلاته تتشبث بلجام الجواد ، عيناه الزرقاوان الشريرتان تلتمعان فى وجهه الوسيم .. كنت تظن أن هذا هو الشيطان ذاته قادمًا ليملأ الأرض جورًا ..

وكان السوط فى يده يتلوى كالأفعى باحثًا عن ظُهور ليمزقها ..

أما (الحمزاوى) فهو أجير بسيط غُلف كعباه بطبقة سميكة من (القشف) يضل فيها الثعبان طريقه بين الشروخ .. ، وفى عينيه اللتين أكل الرمد نورهما ترى نظرة قهر أزلية ..

كان على النقيض من (شاكر) تمامًا .. ولم يكن ثمة مجال لأية مقارنة أصلاً ..

لكننا سنفهم كل شىء بعد قليل ...

* * *

فى ذلك اليوم كان أطفال (الحمزاوى) يلهون قرب القصر .. حين لمحوا (شاكر) عائدًا على صهوة جواده من سهرة حتى الفجر أمضاها عند المأمور ..

وفى براءة أطلق أحد الصغار دعابة على (شاكر) ...

مجرد دعابة طفولية من التى يتجاهلها أى شخص متزن ..

لكن (شاكر) لم يكن متزنًا ..

كان ثملًا تمامًا كعادته فى ساعات الصباح الأولى ..

لهذا لم ير الأمور كما ينبغى أن يراها ..

يقول الشهود أنهم رأوا النيران ـ كحقيقة لا مبالغة ـ تنبعث من عينيه ، واحمرّ وجهه .. وارتجف شاربه الأشقر الجميل ..

ثم إنه ركل بكعبه بطن الجواد ..

فانطلق هذا بين صفوف الأطفال يدوس هذا ويركل ذاك ، على حين استخدم (شاكر) سوطه ليزيد من جرعة الإيذاء ..

مأساة قصيرة لا داعى لها أبدًا ..

لكنها حين انتهت كانت هناك أربعة أجساد صغيرة محطمة تتلوى فى الغبار ..

وكان (شاكر) يلهث منهكًا فوق صهوة جواده ، وقد بدأ يدرك ـ للمرة الأولى ـ بشاعة هذا الذى فعله ..

وهرع الفلاحون ليروا ما حدث على صوت ولولة النسوة ، وكان من بينهم والد الأطفال .. (الحمزاوى) .. الذى احتاج لخمس دقائق كى يفهم ما حدث ..

وكان القاتل قد ترجل من على صهوة الفرس .. ووقف مشوش الفكر لا يدرى ما يفعل وكيف يفعله .. ، إن الأمر لم يكن يحتاج منه سوى الفرار إلى صديقه المأمور الذى سيصلح كل خطأ .. لكنه ـ كما قلنا ـ كان عاجزا عن التفكير ..

فى تؤدة اقترب منه (الحمزاوى) وعيناه فى عينيه ..

لم تكن هناك نظرة عتاب ولا لوم ولا غضب ولا شيء على الإطلاق .. فقط نظرة ثابتة لا تتزحزح ..

وفى رزانة قال :

ـ ما كان يجب أن تفعل ذلك يا سعادة البيه !!

حتى فى موقف كهذا لم ينس أن يبجل سيده ! ، أما (شاكر) فكان يرتجف من الانفعال لكنه لم ينبس ببنت شفة ..

ـ ما كان يجب ذلك ..!!

إن الفأس فى يده والقاتل أمامه ..

لقد كان ما حدث متوقعا .. متوقعا أكثر من اللازم ..

ولم يتدخل أحد لإنقاذ (شاكر) ..

وحتى هو لم يحاول إنقاذ نفسه ..

★ ★ ★



ولم يتدخل أحد لإنقاذ (شاكر) ..
وحتى هو لم يحاول إنقاذ نفسه ..

أما ما حدث بعد ذلك فلا داعى لذكره .

مطاردة الأب المذعور المكلوم فى الحقول .. ، وكلاب المأمور ورجال الشرطة .. والجياد الثائرة الغضبى ..

كان مشهدًا لا يُوصف لما يمكن تسميته (صيد الإنسان) ..

ثم عادوا به مكبلًا بالحبال ووجهه متورّم من جراء كعوب البنادق والركلات ، وتطوّع كل من رجال الشرطة بإظهار حماسه لإرضاء المأمور بالمزيد من العنف ..

وحوكم (الحمزاوى) .. وأعدم .. فلم تكن أمامه فرصة نجاة ..

وكانت هذه نهاية القصة ..

أم هل أقول بدايتها ..؟

* * *

بعد ذلك بأعوام بدأت القرية تثرثر ..

حكايات كثيرة عن شبح يجوب الحقول فى الظلام ..

جثة (عبد الودود) المذعورة التى وجدوها ، وجثة (محمد الحمزاوى) التى ارتسمت على وجهها أعتى علامات الهلع ..

كل هذا ذكر الناس بالحادث خاصة والأخير هو شقيق (الحمزاوى) ..

وبدأت الإشاعات تسرى :

لقد كان (شاكر بك) يذكرهم بالشيطان أو ـ على أقل تقدير ـ بقوة شرّ كاسحة من دنيا ما وراء الطبيعة ..

لهذا قالوا إنه عاد فى صورة شبح كى ينتقم من القرية ..

البعض قالوا إنه عاد فى نفس صورته القديمة على صهوة جواده ليطارد الفلاحين البائسين بين الأحراش ..

والبعض قالوا إنه يتخذ صورًا أخرى خادعة .. كطفل ضلّ طريقه .. أو فتاة حسناء تطلب العون .. أو خفير ساهر ينتظر ..!

(ألا تلاحظون شيئًا غير عادى هنا ؟!..)

المهم أنهم أجمعوا على أنه يجذب الحمقى نحوه ..

عندئذ تكون نهايتهم ..

وفى الصباح الباكر يجدون جثة مذعورة فى حقل ما ..

* * *

وهنا يسأل البعض :

ـ كيف تصف الضحية صورة الشبح بعد أن ماتت ؟!

اسألوا عن ذلك (أم فكرى) ..

فهى ـ كما تزعم ـ أفلتت من ثلاث محاولات متلاحقة لقتلها من قبل الشبح ، وهى ـ بالمناسبة ـ أرملة (الحمزاوى) ..

ولقد رأت فتاة جميلة ، وشابًا وسيمًا ، وشيخًا طاعن السن ..

وكلهم طلبوا منها العون أو طلبت هى منهم العون ليلًا ..

وعنـدئذ ..

كان ذلك الشخص ـ أو الشىء ـ ينتظر حتى تدنو منه ويبدأ فى التحول إلى حقيقته المريعة ..

لكنها كانت تتوقع الشرّ دائمـًا ..

وكانت أسرع انعكاسًا فى الفرار .. وأعلى صوتًا فى الصراخ ..

ولهذا ظلت حية حتى اليوم ..

* * *

دارت الأيام .. وجاءت الثورة والتأميم ..

ورحلت الأسرة إلى (أوروبا) ، وبدأت فى القرية قوانين جديدة وعلاقات طازجة وأسر أخرى لا تعرف شيئًا عن هذه القصة ..

لكن الرهبة ظلت حية فى الأذهان ..

إن الشبح لم يرحل مع عائلته بل استوطن القرية .. ، وظلّ يمارس هوايته القاسية مع الأهالى والغرباء .. بل وخاصة الغرباء الذين ترميهم حماقتهم فى طريقه ليلًا ..

ولا داعى للقول إن الخروج ليلًا صار نوعًا من (التابو) المحرّم فى هذه القرية يتوارثه الأبناء ولا يدرون سببه .. ، فإن كان الخروج محتمًا فليكن ذلك فى جماعة ..

والدرس الأكثر أهمية هو : لا تثق فى مسافر متعب .. أو امرأة تستغيث بك .. أو طفل ضالّ .. أو ـ وهذا للعلم ـ خفير ساهر لم تره فى القرية قط ..

★ ★ ★

أنهى الخفير الساهر قصته وجذب أنفاسًا متلاحقة من (الجوزة) وسعل ثلاث مرات .. ثم نظر لى منتظرًا رد فعلى ..

تبادر سؤال إلى ذهنى .. سؤال هامّ جدًا :

ـ قلت إنك لا تعرف أحدًا فى القرية ؟

ـ بالفعل .. فأنا من عزبة قريبة ..

ـ لكنك تعرف الأسطورة ؟

ضحك .. والمزيد من البلى يتدحرج فى الصندوق الخشبى :

ـ بالطبع !.. هع هع !.. وكيف لا أعرفها وأنا .. أنا ....

ثم لم يكمل عبارته .. ونظر للأفق .. وغمغم :

ـ اقترب الفجر ..

ـ تبدو قلقًا ..

قال وهو يضع (الجوزة) جانبًا :

ـ كل القصص السابقة حدثت قبيل الفجر ..

ـ وأنت .. كيف لم يقابلك (شاكر) هذا بعد ؟

نظر لى فى غموض وانعكاس اللهب يلتمع على أنفه ولم يرد ..

عدت أسأله وأنا لا أشعر بالارتياح :

ـ ما سرّ كلمتك عن الحزن الذى يشعر به الشبح ؟

نظر لى مرة أخرى .. وغمغم :

ـ هل الشيطان سعيد ؟.. لا أحسب ذلك يا بنى ..

أنا أفهم ذلك ..

وأفهم كيف يشعر الشبح بالوحدة والذعر والحاجة إلى رفاق ..

لكنه عاجز عن ذلك للأبد لأن مهنته هى أن يفزع الناس حتى الموت ..

لكن الوقت ليس ملائمًا لهذه الأفكار ..

لأن العجوز ينهض فى تثاقل .. وينظر لى عبر ألسنة اللهب قائلًا :

ـ لقد حان الوقت !!

....

★ ★ ★

فى الصباح وجدت جمهرة من الناس واقفين حيث كان الكوخ العشوائى الذى أمضينا فيه الأمسية ..

اقتربت فسمعت أصواتًا تردد :

ـ هو الخفير من عزبة (النخال) ..

ـ لقد مات !..

ـ وعلى وجهه علامات الذعر !

وفي مركز الدائرة رأيت العجوز راقدًا على ظهره وقد غطوا وجهه بمعطفه الأصفر المتآكل الذي هو من مخلفات الحرب ..

عندئذ عرفت أنه لم ينج بحياته طيلة هذه الأعوام إلا ليقابل (شاكر بك) .. وليصير قصة أخرى يحكيها الفلاحون في ذعر لأبنائهم ولأبناء أبنائهم ..

حقًا إن حياة الأشباح لقاسية !..

★ ★ ★



يحكيها : د. (رفعت)

كانت أضواء الفجر الدموية تتسرب من النافذة وكأنها دماء الليل المسفوح ؛ حين أنهى (شكرى) قصته ..

قلت له وأنا أهشم علبة سجائرى الخاوية :

ـ قصة سخيفة يا أستاذ (شكرى) ..!.. فهى تشبه عشرات القصص المشابهة التى تُحكى فى كل مكان من العالم .. وليس جديدًا فيها سوى موت الخفير بعد أن ظنناه هو (شاكر) ..

قال د . (سامى) مبتسمًا وهو يتثاءب :

ـ هى مجرد تكرار لفكرة (الرعب الموجه فى اتجاه خاطئ) .. وهى التى سمعناها فى قصة د . (محمد) وقصة (هويدا) . وبالتالى هى لا تستحق انتظارنا لها طيلة الأمسية ..

إبتسم (شكرى) فى غموض .. وقال وهو يعبث فى جيبه :

ـ أنتم إذن لم تحسنوا فهم نهاية القصة !

ـ أية نهاية ؟.. تقول إن الخفير قابل الشبح ..

ضحك .. ونهض متجهًا إلى (هويدا) وهو يغمغم :

ـ نعم .. ولكن متى ؟.. ولكن دعونا من هذا .. إن الفجر قد جاء وهو حتمًا لا يناسبنى .. والآن أعتقد أن أفضل قصص الأمسية هى قصة الآنسة (هويدا) ما دامت قصتى لم ترق لكم .. هل لدى أحدكم اعتراض ؟.. لا ؟.. حسن .. ها هى ذى هديتك يا صغيرتى فلا تفتحيها إلا وأنت وحدك ..

وقدم لها علبة صغيرة مغلفة بالورق اللامع ..

ثم ابتسم لصاحب وصاحبة الدار محييًا :

ـ كانت أمسية رائعة وكنتم خير مضيفين .. لكنى مضطر للانصراف فورًا وأرجو ألا تكون هذه وقاحة منى ..

وقبل أن يتكلم أحدنا .. كان (شكرى) قد غادر الفلا ..

* * *

ما إن انصرف (شكرى) حتى جلسنا صامتين هنيهة ..

ثمة شعور عام بأن هناك شيئًا غير مريح فى كل ما حدث وقاله (شكرى) فى ختام الأمسية ..

تمطى د . (محمد) فى كسل وابتسم :

ـ أظن أن الوقت قد حان كى ننصرف ..

فى لهفة صاحت مدام (ثريا) وكأنما أهينت :

ـ إن هذا لن يكون .. ليس قبل الإفطار !

ـ سيدتى .. لا تقتلينا خجلًا أرجوك .. كفانا أنكما لم تريا الفراش ليلة أمس ..

أقسم د . (سامى) أغلظ الأيمان إنهما استمتعا بكل ثانية وإنهما لن ينسيا هذه الأمسية أبدًا .. بل إنه رجانا أن نكررها ..!

قلت وأنا أتمطى أنا الآخر :

ـ وهكذا .. تنتهى حلقة الرعب الأولى .. ، وإننى لأسائل نفسى عما سيبقى منها بعد أن ننام للظهيرة ..

ـ حذار وإلا فاتتك صلاة الجمعة ..

ـ ربنا يستر !

وبدأنا نحتشد للانصراف ، ليس من خلع الحذاء حذاءه .. وزرر من خلع المعطف أزرار معطفه .. واصطحبت مدام (ثريا) السيدتين إلى حجرتها لتمشطا شعرهما الذى غدا نوعًا من الليف بعد الأمسية ..

كان الخدر اللذيذ ـ خدر السهر وبرد الفجر ـ يعابث كلماتنا وأفكارنا ، وكنا نتحرك كأنما نحن آليات مبرمجة .. هل تفهم هذا الشعور ؟..

وبالطبع تكون أقل دعابة كافية لجعلك تنفجر ضحكًا .. الدعابة التى ستندهش ظهرًا من مدى سماجتها وسخفها ..!

سألنى (عادل) :

ـ هل حقًا ستعود للقاهرة بحالك هذه ؟.. مستحيل !.. سنقرأ اسمك فى صفحة الحوادث وصفحة الوفيات معًا ..

ـ إذن سأنام عندك حتى أفيق وأسافر بعد صلاة الجمعة ..

ـ ليكن ...

دنت منى (هويدا) وكان السهر قد لعب برأسها تمامًا حتى أنساها قناع الجلال والرزانة الأنثوية ، فتثاءبت ـ كفرس النهر ـ واعتصرت ذراعى فى قبضتها .. وقالت :

ـ قل لى .. ما هو الغريب فى خاتمة قصة (شكرى) ؟

ـ لا أدرى حقًا ..

ـ ولماذا انصرف بهذا الأسلوب الدرامى ..؟

ابتسمتُ فى استخفاف :

ـ ربما لأن قصته كانت واهية ومملة .. وهو أدرك ذلك قبل أن نصارحه .. ، ولهذا لم يتحمل خيبة الأمل ..

ـ قال شيئًا عن الفجر ...

ـ هل قال ذلك ؟.. لا أذكر ..

فى الخارج كانت الطرقات غارقة فى الماء والوحل وكان الهواء نديًا مغسولاً كأنه خُلق لتوه .. ، وكان ضوء النهار الأزرق الباهت يرتمى فى كسل عبر الطرقات ..

لوّح د . (سامى) وزوجته بأيديهما لنا إذ احتشدنا فى سيارة (عادل) وسيارتى ..

وانطلقنا إلى ديارنا بعد أمسية طويلة .. طويلة ..

* * *

كان نومًا بلا أحلام ..

نومًا أسود مغلقًا بألف مفتاح ..

كنت فقط أفتح عينى من حين لآخر وأتساءل : أين أنا ؟ ، متوقعًا أن الباب بالتأكيد عند قدمى وجهاز الراديو على يسارى .. ثم أجد كل شىء مختلفًا فأجفل وأنهض .. وبعد جزء من الثانية أدرك أن هذه الستائر الزرقاء وهذا الدولاب الأبيض هى أجزاء من حجرة نوم الضيوف عند (عادل) .. ، من ثم أريح رأسى على الوسادة وأبتلع ريقى بصوت مسموع .. وأغيب عن الكون ..

....

ـ (رفعت) ..!.. (رفعت) !..

هامسًا أول الأمر .. ثم بعنف أكثر ..

وفى النهاية جثم على صدرى ـ كالكابوس ـ وشرع يهزنى كأنما ينفض الروح من جسدى .. ، فهمست فى وهن :

ـ (عاد ..) .. (عادل) .. مـ .. ماذا هناك ؟

شعرت بسماعة الهاتف الباردة تندس فى أذنى .. وسمعت (عادل) يهتف فى عصبية :

ـ حدثه !

ـ مـ .. من هو ؟

ـ (شكرى) طبعًا يا أحمق !.. هو على التليفون ..

ـ (عادل) .. أنت سمج .. أنا لم أنل كفايتى بعد .. أرجوك أن ...

ولم أكمل العبارة لأنى غبت عن الكون ثانية ..

عادت الاهتزازات .. وسمعت صوتًا معدنيًا مألوفًا يهتف من السماعة :

ـ صباح الخير يا دكتور ..!.. إنها الحادية عشرة ..؟

ـ و .. و .. كيف صحوت أنت بعد سهرة البارحة ..؟

ـ صحوت لأنى لم أسهر معكم ..!!

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى أننى لم أستطع الحضور لأنى مريض بالأنفلونزا .. ولم أستطع الاتصال بكم لأعتذر .. إنها الأمطار ..!

وثبت فى الفراش كالمجنون راميًا الأغطية بعيدًا ..

ـ ماذا تقول ؟!

فأكد لى ما قاله مسبقًا وهو يعطس ..

ـ إذن من كان معنا أمس ؟!

ـ وهل كان هناك أحد معكم أمس ؟

نظرت إلى (عادل) فى حيرة فهز رأسه .. وأشار لى أن أنهى المكالمة ثم أشعل سيجارة امتصها فى قلق ..

وضعت السماعة وأخذت منه سيجارة أخرى .. وهتفت فى حنق :

ـ إن هذا المتحذلق يلهو بنا !!

ـ هل تظن ذلك ؟

ـ إنه يحاول أن يخلق قصة سابعة !

نفث (عادل) الدخان فى فتور .. وغمغم مضيقًا عينيه :

ـ يبدو صادقًا ..!

ـ ماذا تعنى ؟..

هز كتفيه غير عالم بالرد المناسب ، وقال :

ـ لا أدرى حقًا ..

كنت قد نهضت من الفراش ، وشرعت أبحث عن نظارتى جوار المنبه الموجود على (الكومودينو) .. ، المنامة الشتوية ذات الخطوط الطولية الزرقاء .. وربطة عنقى التى سقطت من فوق الشماعة حيث علقتها فى إهمال ..

ـ إرتد ثيابك واغسل وجهك .. وتعال لتأكل شيئًا ..

وفى الصالة كان ابنه يلعب هنا وهناك فى حين كانت (سهام) بعد غافية ، وكان (عادل) قد أعد لنفسه وللطفل بعض البيض المحترق والخبز المتفحم والشاى الشبيه ببول مرضى السكر ..

جلست متثاقلًا على المائدة ألتهم بعض هذه الأشياء المفزعة ، وأرسم بوجهي تعبيرات سخيفة علّها تضحك الطفل الذى وقف يرقبنى فى حيرة ورعب فاغر الفم متصلّب الجسد ..

ـ وجه ابنك يدلّنى على أنه مصاب باللحمية يا (عادل) ..!

ـ مرحى !

ثم إنه قال فى فتور وهو يحك ذقنه :

ـ هل تدرى فيما أفكر ؟.. إن الذى كان معنا ليلة أمس لم يكن (شكرى) !!

ـ ماذا تعنى ؟.. هل سنعود لهذا ؟

اتسعت عيناه وحملق فى وجهى :

ـ ألم تفهم نهاية قصته ؟

ومضى يتجول فى المكان عاقدًا يديه خلف ظهره مفكرًا بصوت مسموع :

ـ أنا رجل شرطة ، وحين تحدث جريمة قتل يكون أول سؤال نسأله هو : من آخر من رأى القتيل حيًا ؟.. ولقد مات الخفير فى قصته .. ومتى ؟.. عند الفجر .. عندما لم يعد هناك جزء باق من الليل كى يقابل الخفير قاتلًا آخر .. هل تفهم هذا ؟.. لقد حكى (شكرى) قصته بعد أن حذف منها جزءًا صغيرًا ، لكنه لمح لنا بما حدث بدقة ..

ونحن لا ننسى آخر كلماته الغامضة : (نعم .. لكن متى ؟ ، أنتم لم تحسنوا فهم القصة) .. هل فهمت ؟

وهرش مؤخرة رأسه :

ـ ثم فراره المذعور عند الفجر .. كل هذا يشير بإصبع الاتهام نحوه ، لكننا لم نكن على استعداد كى نفهم ..

قلت فى توتر وقد بدأت أفهم :

ـ يا للهول !.. إذن (شكرى) هو ..

ـ هو (شاكر بك) نفسه .. إن تشابه الاسمين واضح ..

ـ ولماذا يفضح نفسه ؟

ـ لأنه يتسلى .. يلهو بنا .. وكان الفزع هو هدفه الوحيد !!

ـ هذا الافتراض يصعب إثباته ..

ابتسم فى ثقة ونظر لى :

ـ بالعكس .. يمكننا إثبات أن (شكرى) الحقيقى كان مريضًا أمس ولم يغادر الفراش .. ، ويمكننا البحث عن القرية التى كان بها إقطاعى إسمه (شاكر كمال) قتله فلاح إسمه (الحمزاوى) ، وعن خفير من عزبة الـ ... الـ ...

ـ النخـــال ...

قلتها مصححًا وهن ذاكرته .. ثم أردفت :

ـ إن هذا مفزع .. إذن فلنبحث وبسرعة ..

ـ بقيت نقطة نسيناها ..

ـ وما هى ؟..

ـ الهدية التى قدمها لـ (هويدا) .. ماذا كان فيها ؟!

* * *

ـ فيها ساعة جيب ذهبية نقشت على ظهرها عبارة بالفرنسية .. ومعها بطاقة صغيرة ..

قالتها (هويدا) وهى تمد يدها لنا بالعلبة التى أهداها إياها (شكرى) أو (شاكر) ..

أمسكت بالساعة التى كانت نقوشها وأناقتها خير دليل على ثمنها .. وكانت رائحة العظمة الغابرة تفوح منها ..

قلبتها فى تؤدة وتأملت الحروف المنقوشة على ظهرها ، وبلغتى الفرنسية المتوسطة استطعت أن أقرأ العبارة التالية :

صنعت فى سويسرا خصيصًا للسيد (شاكر كمال) .

لقد كان هذا الـ (شاكر) ثريًا إلى درجة امتلاك ساعة (عمولة) من (سويسرا) عليها اسمه . والحق يقال أنها كانت تنطق بالترف والفخامة .. حتى أننى شعرت بغبطة لأنها ستكون لى يوم أتزوج (هويدا) !!..

أما البطاقة فكانت مكتوبة بالعربية وبخط أنيق للغاية :

ـ لم يكن الخوف معنا .. لأنه كان أحدنا !!

ظللت أتأمل كل هذا فى غباء ..

فصاحت (هويدا) فى براءة عذبة :

ـ .. ماذا يضايقك فى كل هذا يا (رفعت) ؟!

ـ يضايقنى كل هذا .. !

واستطردت فى غموض :

ـ لقد كان (شكرى) على حقّ .. إن قصته هى أكثر القصص رعبًا فى حلقة الرعب ..!!

★ ★ ★

فى الأيام التالية احتشدت علامات الاستفهام ..

(عادل) اكتشف أن قصة (شكرى) صحيحة ، وأن القرية ـ مسرح الأحداث ـ تقع قرب (الإسكندرية) .. ربما على مسافة أميال معدودة من الفلا التى قضينا فيها أمسيتنا تلك ..

(شكرى) أثبت يقينًا أنه لم يكن معنا فى تلك الأمسية .. ، وقال إنه كان يرغب فى أن يشاركنا حلقة الرعب لأنه ـ كما قال ـ يحب هذه الأشياء كثيرًا ..!

على أنه لم يصدق قط ـ ومن يلومه ؟ ـ قصة شبيهه الذى قضى معنا أمسية كاملة دون أن نشك فيه ، وهو مصرّ على أن الأمر كله دعابة حاولنا إقناعه بها لنسخر منه ..

أما د . (سامى) فاكتشف أمرًا أكثر طرافة ..

هل تذكرون الصورة التى التقطتها زوجته كنوع من اللعب بأعصابنا بعد روايته عن الزائرة ؟..

هذه الصورة كانت تظهر وجوهنا المنبهرة جميعًا فى ضوء (الفلاش) لكنها لم تظهر (شكرى) بتاتًا ..!..

كان مكانه فى الصورة فارغًا ، برغم أننى أذكر جيدًا أنه كان جالسًا إلى يمينى يحكّ لحيته فى ضيق ويتمنى لو كانت الأمور أكثر وضوحًا فى قصة (لميس) ..

كان فى مركز الصورة .. لكنه لم يبد فيها ..

★ ★ ★

لقد انتهت حلقة الرعب ..

ولم يعد أمامى سوى أن أجمع أوراقى وأنام ..

تسألونني عن رأيى فى كل هذا ..

أقول لكم إنها مجرد انطباعات لا حقائق ..

لا شك أننى سأبدو سخيفًا إذا ما تحدثت عن شبح الثرى المستهتر الذى سئم حياة الأشباح وراح يفتش عن الصحبة ..

وكانت هذه الصحبة هى نحن ..

وكأى شبح يحترم نفسه كان يهوى الرعب ..

هل تذكرون كيف بدأنا نحكى أقاصيص الرعب ؟ ومن كان المحرّك الذى دفعنا دفعًا لهذه الأحاديث الرهيبة دون أن يكلّ أو يُرهق ..

وكلما سقط واحد منا فريسة النعاس كان هو يزداد نشاطًا ويحركنا حيث يريد فى سلالة غير عادية ..

لقد كان يلهو ويسلّى نفسه ..

وفى نهاية الأمسية أخبرنا من هو ..

لكننا لم نفهم ..

لم يكن الخوف معنا .. لأنه كان أحدنا !

كان (شكرى) هو الخوف البرّى غير المبرر ذاته ، وكان يحيا فى كل قصة من القصص ..

كان هو الشىء الغريب الذى شعرت به (سهام) يراقبها من المرآة ، وهو النذير الغامض الذى جعل قط د . (محمد) يجفل ، وهو الذى جعل حشرات (يوسف) تتوحش ، وهو الذى كان يدخل فلا د . (سامى) كل ليلة .. ، وهو الشىء غير المريح الذى أفزع (هويدا) فى عينى الطفل .. ، وهو ذات الشىء الذى كان يفرّ منه بين الحقول :

كان (شكرى) موجودًا فى كل هذا ..

لأنه هو الخوف الأولى البكر ..

وفى تلك الليلة لم نكن ثمانية ..

بل كنا سبعة ..

وكان الخوف ثامننا ..

* * *

وبعـد ...

كانت هذه هى حلقة الرعب الأولى التى ستحيا فى ذاكرتنا ما حيينا ..

ولا ريب فى أنها ستكون الأخيرة بالنسبة لأكثر من شاركوا فيها ..

لأن الظروف لن تتكرر مرة أخرى ، وهم لن يتركوها تتكرر ..!

أما أنـــا ...

فالقارئ يعرفنى جيدًا ..! ، ويعرف أنه لو كانت هناك حلقة رعب أخرى فى أى مكان من الكون فأنا ـ بلا جدال ـ عضو فيها ..!

وكيف كان لى أن أعرف أن لقائى مع د . (لوسيفر) قريب .. وأننى سأدخل معه عالمًا آخر من القصص الكابوسية التى لا تنتهى ، وكيف كان لى أن أعرف أننى سأكون طرفًا فيها جميعًا ؟..

ولكننى ـ كما هى العادة ـ كنت ساذجًا .. ساذجًا ...

كانت أحداثًا رهيبة .. ولسوف تشاطرنى الرأى حين أحكيها لك ..

لكن هذه حلقة أخرى .

* * *

د . رفعت إسماعيل

القاهـرة